مآخذ اجتماعية

على حياة المرأة العربية

د / نازك الملائكة

أستاذة الأداب بجامعة البصرة والكويت سابقًا

قدم لها وعلق عليها

محمّد عيد العبّاسي

دار الفضيلة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الناشر/ دار الفضيلة

الرياض ١١٤٣٣ - ص.ب ١٠٣٨٧

تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

مقدمة الطبعة الثالثة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ حقَّ تُقاته ولا تموتُنّ إلا وأنتم مُسلمون﴾[1] ﴿يا أيها النّاسُ اتّقُوا رَبَّكُمُ الّذي خلقكُم مّن نّفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتّقوا اللهَ الّذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكُمْ رقيباً﴾[2] ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً (٧٠) يُصلِحْ لكُم أعمالكُمْ ويغفر لكُمْ ذنوبكُمْ ومن يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[3].

أما بعد:

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٢.

(٢) سورة النساء الآية ١.

(٣) سورة الاحزاب الآيتان ٧٠، ٧١.

فهذه الطبعة الثالثة لهذه الرسالة النافعة القيمة، وقد مضى على طبعتها الأولى سبع وعشرون سنة، طبعت بعدها طبعة نظامية واحدة بإشرافي، وطبعة أخرى ضمن كتاب أصدرته دار القلم بدمشق مع رسائل أخرى عن المرأة بعنوان «كلمات إلى حواء»؛ وهناك طبعات أخرى كثيرة غير نظامية.

والمهم أن هذه الرسالة لقيت استحساناً طيباً وقبولاً جيداً من القراء الواعين الغيورين على مصلحة الأمة ومستقبلها، وإن كانت فيما أرى تستحق تشجيعاً أكبر، فهي جديرة بأن تقرأها كل امرأة وأن تكون في مكتبة كل بيت، ذلك لأنها صارحت الجميع، فوضعت النقاط على الحروف في تحديد موطن الداء الذي يفتّ في كيان المجتمع العربي والإسلامي، وأشارت بكل صدق وإخلاص، إلى هذا الخطر العظيم خطر سيطرة التقليد الأعمى والتبعية البكماء الصماء للغرب الكافر، وحضارته المادية المنحلة التي تحكمت فيها الشهوات وأستعبدتها الأهواء واستنزفها أصحاب رؤوس الأموال والشركات الكبيرة؛ فلم يبالوا بشقاء الناس وبؤسهم ودمار الأخلاق والقيم من أجل ملء جيوبهم المكدسة وزيادة ثرواتهم الحرام.

وقد أهابت الرسالة بالجميع ليتحرروا من تلك التبعية

ويعودوا رجالاً ونساءً إلى الشخصية الإسلامية الحقيقية الأصيلة التي طلعوا بها على العالم منذ ظهور الإسلام، فحملت له مشاعل الخير والهداية والكرامة والعزة والنور والسعادة، وعرفت الإنسانية بها لأول مرة الفتح الرحيم الهادي العادل الذي يحمل رسالة الله، ويسعى لإحقاق الحق ودحر الظلم والفساد من كل مكان.

وقد يستغرب البعض بحث مسألة الكعب العالي، والإطالة فيه، وقد انحسرت (موضته) بعض الانحسار، ويتساءل عن الغرض من ذلك، فأقول: إن هذا اللباس الذي شاع نحو ثلاثة عقود ماضية هو مثال عملي للموضوع الأساس الذي يدور حوله البحث في هذه الرسالة، وهو موضوع الغزو الغربي الخطير للمجتمعات الإسلامية عامة، وتقليد جماهير المسلمين ومثقفيهم رجالاً ونساء لهذه الأمم الغربية الكافرة، وتشبهها بهم في أغلب أمور حياتهم، فليس الكعب العالي مقصوداً لذاته بل هو عينة واضحة لهذه الظاهرة المنكرة، والمشكلة الكبيرة التي تهدد استقلالنا وعقيدتنا وأخلاقنا وحياتنا عامة، لأن هذا الزي حينما يولي تحلّ محله أزياء أخرى مثله أو قريباً منه مما ابتدعه الغرب بل القوى المتحكمة فيه، وهي القوى الرأسمالية والمادية واليهودية التي لا يهمها خلق ولا دين، وإنما يهمها لذاتها وشهواتها

ومصالحها المادية البحتة.

هذا وقد عرضت على الأخ الكريم أبي عبدالله المسؤول عن قسم النشر بدار الفضيلة ـ زادها الله توفيقًا ونجاحًا وخدمة للإسلام والمسلمين ونشرًا للفضيلة ـ في مدينة الرياض العامرة إعادة طبع هذه الرسالة ونشرها، فوافق على ذلك بكل سرور، فرجعت إليها وراجعتها ونقحتها، وأضفت إليها ما رأيته مناسبًا، فجاءت بفضل الله تعالى قرة عين للمؤمنين المخلصين، وشوكة في حلوق الأعداء المفسدين، وأرجو الله تعالى أن ينفع بها أبناء أمتنا وبناتنا، وأن يجعلها لبنة قوية في صرح النهضة الإسلامية القويمة المنشودة، ومعولاً ماضيًا في هدم العادات السيئة، وسدًا قويًا في وجه التقليد الأعمى للغرب الضال المضل، وأن يدخر لكاتبها وناشرها أجرها وذخرها **«يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم»** وصلى الله وسلم على محمد وآله، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد عيد العباسي

الرياض في شوال عام ١٤٢٠هـ.

الموافق لكانون الثاني سنة ٢٠٠٠.

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدلله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي من بعده، وعلى آله وصحبه وجنده.

أما بعد: فهذه الطبعة الثانية من هذه الرسالة القيمة: الصغيرة في حجمها، الكبيرة في مضمونها، استخلصت بها الكاتبة الفاضلة الرأي الصواب من تجارب الحياة، ووقائع الأحداث، فعرضته مقرونًا بالحجة المقنعة، والأسلوب السهل الجميل؛ وقد كنت نشرت الطبعة الأولى مع مقدمة ضافية، وبعض تعليقات مفيدة منذ ثلاث سنوات، فما كانت إلا أشهر حتى تلقفتها الأيدي، ونفدت من الأسواق، وكانت الطلبات عليها تترى من هنا وهناك، ورغب إلي الأخ الفاضل صاحب «دار القلم» في دمشق بنشرها ضمن كتاب خاص بالمرأة مع طائفة من الكلمات الجيدة المختارة، فاستحسنت رأيه، وحثثته على تحقيقه، وصدر الجزء الأول من هذا الكتاب، وفيه هذه الرسالة، بعنوان «كلمات إلى حواء»، ولكن عاد الكثيرون يلحّون في إعادة طبعها مستقلة، وهيأ الله تعالى ذلك، فكانت هذه الطبعة، وقد أضفت إليها بعض التعليقات المناسبة، وكلي أمل أن تحوز

إعجاب القارىء الكريم، وأن تكون مني مشاركة متواضعة في سبيل صدِّ تيار الغرب والمستغربين عن بلاد الإسلام، والعودة بالمسلمين إلى هدي ربهم تبارك وتعالى الذي أنزله على خيرة رسله، وخاتم أنبيائه محمد صلوات الله عليه وسلامه، وبالله وحده التوفيق، ومنه العون والتأييد.

دمشق في ٦/ ٥/ ١٣٩٦هـ

الموافق ٥/ ٥/ ١٩٧٦م

محمد عيد العباسي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، الذي جعل دينه وشريعته هدىً للناس ورحمة في كل عصر وحين، وحذر عباده من مكائد عدوهم الشيطان اللعين، والصلاة والسلام على من حرر العقل من عبودية العبيد، ونهى أمته عن سلوك طريق التقليد، وأمرهم بالتفكير والاتباع على بينة وبصيرة، وأن يحكموا شريعة ربهم في شؤونهم الحقيرة والخطيرة، وحذرهم من أن يكونوا إمعات يتبعون كل ناعق، ويسيرون وراء كل نابح وناهق.

أما بعد، فإنه لا يخفى على أحد ما آل إليه أمر البلاد العربية والإسلامية في شؤونها كلها، من ضعف وانحطاط، وذلة وهوان، وتخلف وتأخر، وتنازع وتمزق، مما يحز في نفس كل مخلص غيور، فيحزنه ذلك ويسوءه، ويشمت كل عدو متربص، فيفرحه ذلك ويسعده.

وإذا رحنا نفتش عن أسباب هذا الوضع الشائن المزري لوجدنا أنه يقف في مقدمتها ـ بعد سبب الجهل بحقيقة الإسلام ـ ذلك التيار الجارف الهائج الأهوج، الذي يكاد يلف أمتنا كلها،

ويسوقها بقسوة وعنف ليلقي بها ـ لا سمح الله ولا قدر ـ في الهاوية السحيقة التي لا حياة بعدها ولا نجاة.

إنه تيار التقليد الأعمى الأصم الأبكم، للمجتمعات الأجنبية عنا، والغريبة عن أمتنا، في أفكارها وأخلاقها، وعاداتها وأزيائها، وسائر شؤونها وأحوالها، والاستسلام الكامل، لما يرد إلينا من الخارج دون وعي أو تفكير، ودون تبصر أو تمييز.

ومما يدعو إلى التعجب والاستغراب، بل والثورة والاستنكار، أن يستشري هذا الداء الوبيل في وقت حرج وخطير، يحيط بأمتنا فيها الأعداء من كل جانب، وتستأسد علينا فيه إسرائيل وتتنمر، وترى البغاث بأرضنا يستنسر[1]، مما يدفع العاقل اللبيب إلى الاعتقاد بأن وراء هذا التيار العاصف يد إسرائيل المجرمة، وتخطيط الكافر المستعمر، اللذين يعملان دون كلل أو ملل لتدميرنا والسيطرة علينا، وجعلنا ذيلاً لهما مطيعين، وأتباعًا لهما مسخرين مهينين.

---

(١) هذا مثل عربي مشهور، معناه أن ضعاف الطير تصبح في أرضنا نسورًا، أي أن الضعفاء إذا حلوا في بلادنا يصبحون أقوياء علينا، ويتحكمون في رقابنا.

لقد جعلنا الله تعالىٰ خير الأمم حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١) وجعلنا هداة للإنسانية إذا ضلت، ومنقذين لها إذا على هلاك أشرفت، وموجهين لها إلىٰ الخير ومرشدين، ويوم القيامة عنها مسؤولين وعليها شاهدين، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٢).

فعار علينا والله أعظم عار، أن نتخلىٰ عن هذه المنزلة الرفيعة التي بوأناها الله تبارك وتعالىٰ، وأن نضيع هذه الوظيفة التي كلفنا بها، وأن نهبط إلىٰ مستوىٰ المقلدين، ومرتبة الأطفال والسذج، والببغاوات والقرود، فينطبق علينا قول ربنا سبحانه في بني إسرائيل موبخًا ومنكرًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾(٣).

إننا لا ننكر أن لدىٰ الأمم الأخرىٰ حسنات وفضائل، وتقدمًا وعلمًا، والإسلام لا يمنعنا أبدًا أن نأخذها عنهم، ونفيد منها ما دامت لا تخالف شريعتنا ولا تفسد ديننا، فالعلوم والحضارة،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٦١.

والمكتشفات والمخترعات ليست ملك أمة بذاتها، ولا هي مقصورة على دولة بعينها، بل هي ملك جميع الشعوب، لأنها قد شاركت في صنعها وإنتاجها وإبلاغها مستواها الرفيع الحالي الإنسانية كلها، بكل أممها وجميع أجيالها، وأمتنا لها في ذلك ـ والحمد لله ـ القِدْح المعلى، والنصيب الأوفر، ولذلك فنحن لا نمنع من الاستفادة من كل تقدم صالح، أو علم نافع، والحكمة الإسلامية تقول: «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها، وهو أحق الناس بها» ولكن الذي نمنع منه ولا نقبله، ونستنكره بل ونحاربه أن نضيع شخصيتنا، ونفقد ذاتيتنا، ونتخلى عن كياننا، ونتجرد من صبغتنا ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[1] ثم نذوب في الأمم الأخرى، فذلك لعمر الله هو الموت والفناء، وفيه العار والشنار.

إنه لا بأس أن نأخذ ما لدى الأمم الأخرى مما أبدعته من أمور العلم والاكتشاف والوسائل العلمية المتقدمة، ولكن البأس كل البأس أن نأخذ منهم العقائد والأفكار والنظم، وأنماط السلوك والأخلاق والعادات.

والذي يؤسف حقًا أن نرى مجتمعاتنا تسير في الطريق

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

الآخر، طريق التقليد الأعمى الكامل أو شبه الكامل للأجنبي، وتتخلى عن شخصيتها المستقلة، فتراها لا تأخذ عن الأمم علومها وصناعتها، وتقدمها وحضارتها، بل تأخذ عنها أسوأ ما لديها كالمذاهب الفكرية الهدامة، والنظريات الوضعية والمادية الباطلة، كالشيوعية والإلحاد والتشكيك في العقيدة والدين، والطعن في مثلنا العليا وقيمنا السامية، كما تأخذ عنها نظريات دارون وفرويد وديوي وغيرها مما أدى إلى الميوعة والانحطاط الخلقي، والفوضى والجنون الجنسي، فترانا لا نقلد أفاضل تلك الأمم ولا عقلاءها، بل نقلد سخفاءها وجهلاءها، ونتبع سفهاءها ورقعاءها، كالممثلين والممثلات، والخليعين والخليعات، والتائهين والتائهات، والفارغين والفارغات في أسوأ ما لديهم على الإطلاق.

ويحسن بي أن أذكر بحقيقة هامة هنا، وهي أن الإسلام يفرض على المسلم أن تكون له شخصية مستقلة متميزة خاصة به، ولا يجيز له أن يقلد الآخرين، أو يتشبه بالكافرين في أمورهم الخاصة بهم أبدًا؛ لأنه يريد منه أن يكون هو القدوة والأسوة، والمرشد والهادي، لا أن يكون ذنبًا وذيلاً، وتابعًا ذنيلاً، وخاصة لمن غضب الله عليهم وأضلهم، فكيف يهدوننا

وهم ضالون، وكيف يرشدوننا وهم في حيرة يتخبطون ومن مشكلاتهم وأزماتهم يشكون؟ قال الله تبارك وتعالى مخاطبًا نبيه الكريم ﷺ، وموجهًا لنا ومرشدًا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾(٢) وقال رسول الله ﷺ: **«من تشبه بقوم فهو منهم»**(٣) كما حذر ﷺ أشد التحذير من مشابهة الكفار والمشركين في شؤونهم الخاصة بهم، وقلَّ أن يوجد باب من أبواب الشريعة إلا وفيه أمر بمخالفتهم، وتجنب لمشابهتهم، فمن ذلك قوله ﷺ: **«غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود ولا النصارى»**(٤). وقوله: **«خالفوا المشركين، احفوا الشوارب، وأعفوا اللحى»**(٥). ورأى رسول الله ﷺ على عبد الله بن عمرو بن

---

(١) الجاثية: الآية ١٨.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٦.

(٣) رواه أحمد وغيره بإسناد حسن، وهو جزء من حديث.

(٤) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان بإسناد حسن.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

العاص ثوبين معصفرين فقال له: **«إن هذه ثياب الكفار فلا تلبسها»**[١].

وقد شاع ذلك عنه ﷺ وانتشر، وعلمه الناس جميعًا، المسلمون منهم وغير المسلمين حتى قال اليهود: «ما يريد هذا الرجل (أي محمد ﷺ). أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه»[٢].

ولا يحسبن أحد أن هذا أمر تعبدي محض، فإنه واضح الحكمة بيِّن المعنى، فقد ثبت لدى العلماء والمفكرين أن هناك ارتباطًا قويًا بين ظاهر الإنسان وباطنه، وأن للباس الإنسان مثلاً وشكله تأثيراً على عقله وفكره، وقد يتم ذلك دون شعور منه وانتباه، فإذا قلد الإنسان أهل السوء والفجور في ظاهرهم انتقل عدوى ذلك إلى أن يقلدهم في أخلاقهم وأفكارهم، ويشعر بمحبتهم، وبهذا ينسلخ من عقيدته ودينه، وصفاته وأخلاقه، شيئًا فشيئًا، وفي ذلك ما فيه من الخطر الشديد والانهيار

---

(١) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(٢) روى مسلم (٣/ ٢١٢ من شرح النووي عليه) وغيره، وهو جزء من حديث فيه قصة.

الأكيد[(١)]

ولله در المفكر المسلم العظيم ابن خلدون رحمه الله إذ عقد فصلاً خاصًا في مقدمته جعله بعنوان: «المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده» وبين فيه أن الذي يقلد غيره إنما هو الضعيف والناقص والمغلوب والجاهل، فقال: «ولذلك ترىٰ المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، حتىٰ إنه إذا كانت أمة تجاور أخرىٰ، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة (أي الإسبان والبرتغاليين) فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتىٰ في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتىٰ لقد يستشعر

---

(١) انظر في هذا الموضوع الهام كتاب «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ، وكتاب (جلباب المرأة المسلمة) للشيخ الألباني رحمه الله تعالىٰ.

من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء فالأمر لله»[١].

أقول: الله أكبر. فلقد صدق ابن خلدون، إذ تنبأ باستيلاء الإفرنج علىٰ الأندلس الإسلامية، وخروج المسلمين منها قبل أن يقع ذلك بعشرات السنين، ولم يكن له دليل علىٰ ذلك إلا مشاهدته تشبه المسلمين بالأعداء في ملابسهم وشاراتهم، وعاداتهم وأحوالهم، ترىٰ ماذا كان يقول لو شاهد مسلمي هذا العصر، وتقليدهم للكافر المستعمر، وبم كان يتنبأ؟

ترىٰ هل يتعظ المسلمون بهذا المثل الذي حدث لأجدادهم من قبل، فيقلعوا عن تقليد أعدائهم والتشبه بهم، أم أنهم سيصمون آذانهم ويعمون بصائرهم وأبصارهم حتىٰ تقع الكارثة لا سمح الله؟ وما أحسن ما قال القائل: السعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، ووعظ به الناس!!

إن من المؤسف والمؤلم معًا أن تيار التقليد الأعمىٰ هذا لم يعد مقتصراً علىٰ النساء اللاتي من طبعهن الاهتمام بشكلهن وجمالهن، بل إنه استشرىٰ فعم الرجال أيضًا، وهم الذين

---

(١) مقدمة ابن خلدون، الفصل الثالث والعشرون ص٤٧.

يفترض فيهم الاهتمام بأمور الحياة الكبيرة، والالتفات للشؤون الخطيرة.

فقد بات من المألوف لدى بعض المسلمين أن يطيل الرجال أظفاره ويصبغها، ويطيل شعره وسوالفه[1]، ويتفنن في ذلك بأشكال غريبة وعجيبة، ويعمد إلى السراويل (البنطلونات)

---

(١) يحلو لبعضهم أن يدافع عن إطالة شعره بأن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يفعلون ذلك، والجواب: نعم، قد ثبت عنه ﷺ وعن أصحابه ذلك، كما ثبت أنهم كانوا يحلقون أحيانًا؛ وتلك عادة عربية أقرها النبي عليه الصلاة والسلام، ولكنه لم يأمر بها؛ فهي جائزة شرعًا، ولكن بشرط ألا يقصد فاعلها التشبه بالنساء، أو بالكفار من الخنافس والهيبيين وأمثالهم.
ترى مَن من هؤلاء دفعه حقًا إلى إطالة شعره التشبه بالنبي ﷺ وأصحابه؟ إنهم لو قصدوا ذلك حقًا لأعفوا لحاهم قبل ذلك، لأنه ﷺ أعفاها هو وأصحابه، وأمر بها وجعلها واجبًا شرعيًا؛ فما بالهم تركوا الواجب المأمور به، وتشبثوا بالمباح الذي هو عادة محضة لم نؤمر بها، ولم ننه عنها؟
إن ذلك ليذكرني بقصة ذاك الذي زعموا أنه كان يقوم في الليل في رمضان، فيصيب من السحور ما شاء الله له مع أهله وأولاده، فإذا كان النهار أفطر وأكل ما شاء، فاستغرب بعضهم أمره، وسأله: ما دمت لا ترغب في الصيام، وما دمت عازمًا على الإفطار، فلماذا تتعب نفسك في الاستيقاظ من الليل، والتسحر مع أهلك وبنيك؟! فما كان منه إلا أن قال: إذا كنت قد قصرت مع ربي، فتركت فريضة الصيام، فإنه لا يليق بي أن أجمع إلى ذلك تقصيرًا آخر، فأترك سنة السحور، فالمسألة بحاجة إلى قليل من الذوق!!

الضيقة التي تبرز تفاصيل الجسم بوضوح من فوق، **الفضفاضة** الطويلة حتى أسفل القدمين من تحت، ويختار الألوان الزاهية، والقمصان ذات البقع المختلفة الألوان والأشكال، حتى صرنا لا نستطيع أن نميز أحيانًا بين الشاب والفتاة إلا بصعوبة!

كما أن من الأمور المنكرة التي انتشرت وذاعت، وعمت وطمت بين الرجال والنساء على حد سواء، تلك الشعور المستعارة التي يسمونها (باروكات) يشترينها بأثمان باهظة، ويضعنها على رؤوسهن، فترى إحداهن ذات شعر أسود طويل مسترسل اليوم، ثم إذا بك تراها ذات شعر أشقر متجعد قصير غدًا، وبعضهن يعمدن إلى قص شعورهن الجميلة الناعمة، ليصنعها لهن الحلاق (باروكات) فظة متصنعة، باهتة ليس فيها شيء من ذوق سليم، أو جمال مقبول. وفي هذا من الغش والتزوير، والخداع والتدليس والأمور المنافية للأخلاق ما هو واضح، ويكفيه سوءًا وخزيًا، وبشاعة وجرمًا أنه يوقع المسلم والمسلمة في غضب الله المنتقم الجبار سبحانه ولعنته، قال رسول الله ﷺ: **«لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»**[1] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **«لعن رسول الله**

---

(١) رواه البخاري.

صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس - لبسة المرأة، والمرأة تلبس - لبسة الرجل»[1] وقال صلوات الله وسلامه عليه: **«لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشِمة»**[2]. وعن ابن مسعود رضي الله

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٢) رواه البخاري (١٢/ ٤٩٩ - ٥٠١ من الفتح) ومسلم (١٤/ ١٠٥ نووي) عن ابن عمر رضي الله عنهما، والواصلة: من تصل شعر المرأة بشعر آخر، والمستوصلة: من تطلب فعل ذلك في شعرها. وهذا الحديث يدل على تحريم وصل الشعر مطلقًا، ومن ذلك استعمال ما يسمى (الباروكة) أو (البوستيجة) بجميع أنواعها وأشكالها: ومن المؤسف والغريب أن بعض العلماء أفتى بإباحته إذا كان بقصد تزين المرأة لزوجها وبرضاه؛ وبعض آخر أفتى بإباحته إذا كان الشعر اصطناعيًا، وبعض ثالث أباحه إذا كان الموصول من شعر المرأة نفسها، وهذا كله فهم خاطئ ليس عليه شبه دليل من كتاب أو سنة، لأن النصوص الواردة في المسألة عامة تشمل كل وصل، والواجب إبقاء العام على عمومه حتى يأتي ما يخصصه، ولم يرد هنا شيء يخصص تلك النصوص، بل قد ورد ما ينسف هذه التأويلات من جذورها، فمن ذلك ما رواه البخاري (١٢/ ٤٩٨ فتح) ومسلم (١٥/ ١٠٢ - ١٠٥ نووي) واللفظ له عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: «جاءت امرأة إلى النبي ﷺ؛ فقالت: يا رسول الله: إن لي ابنة عُرَيِّسًا (أي عروس صغيرة) أصابتها حصبة، فتمرق شعرها (وزوجها يستحسنها) أفأصله؟ فقال: لعن الله الواصلة والمستوصلة». =

عنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات[١]، والمتنمصات[٢] والمتفلجات للحُسْن[٣]؛ المغيرات خلق الله» فجاءته امرأة فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت؛ فقال: مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين، فما وجدت ما تقول[٤]. قال: لئن كنت قرأتيه

= ومن ناحية أخرى فإنه لا يترتب على تلك الفروق السطحية شيء يستحق تغيير الحكم، لأن العلة في التحريم إنما هي تغيير خلق الله أولاً، والغش والتزوير والتدليس ثانيًا، وقد ورد النص بتحريم ذلك في الكتاب والسنة بجلاء ووضوح.

(١) الوشم: هو أن يعمد الإنسان إلى تزيين أجزاء من جسمه كاليدين والوجه برسوم وتصاوير بواسطة غرز إبر في الجلد، وذرّ مسحوق ملون فيه بشكل تلك الرسوم، التي لا يمكن إزالتها فيما بعد. فالواشمة من تفعل ذلك، والمستوشمة من تطلب فعل ذلك فيها.

(٢) النمص: هو نتف الشعر، وخاصة من الوجه والحاجبين.

(٣) الفلج: هو التفريق بين الأسنان المتراكبة بواسطة المبرد، وكانت العرب تستحسن ذلك، وتفعله بقصد التجمل والحسن، ونحمد الله على أن ذلك انمحى أو كاد من مجتمعنا.

(٤) هذا ـ كما قال أستاذنا العلامة الألباني ـ فخر عظيم ـ والله ـ للمرأة المسلمة في صدر الإسلام، إذ تقف امرأة من عامة النساء لتعترض على الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وتقول له: إنني قرأت القرآن كله: =

لقد وجدتيه؛ أما قرأت: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[١]؟ قالت: بلىٰ. قال: فإنه قد نهىٰ عنه[٢].

إنني أؤكد أن هناك قوىٰ صهيونية خفية، وأيديا استعمارية كافرة تقف وراء ذلك كله[٣] وأنه لا يسير بهذا الشكل السريع والعجيب صدفة واتفاقًا أبدًا، إنهم يخططون له بإحكام وإتقان، بغية تبديد قوانا، وبعثرة طاقاتنا، وإشغالنا بالتافه والسفساف والحقير من الأمور، والعبث واللهو والرخيص من القضايا، ليتفرغوا من ثمة إلىٰ تدبير المهلكات، والرهيب من المخططات،

=وفهمته وتدبرته، فلم أجد فيه ما تقول من لعن الله تعالىٰ أولئك النساء، فبين لها أن ذلك منه استنتاج للآيات الآمرة باتباع الرسول ﷺ، وتحكيمه في كل شيء، ترىٰ هل في النساء المسلمات اليوم من تستطيع أن تقول بصدق وإخلاص: إنها قرأت القرآن كله، وفهمته وتدبرته، لا بل نصفه، لا بل عشره؟

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) متفق عليه.

(٣) روىٰ الأستاذ الكبير علي الطنطاوي رحمه الله تعالىٰ حادثة تشير إلىٰ هذا التخطيط الأجنبي في كتابه القيم (مع الناس ص٣٠ ـ ٣٦) بعنوان (إبراهيم هنانو قال لي) فراجعه فإنه مفيد، كما روىٰ قريبًا من ذلك الشيخ متولي الشعراوي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في كتابه القيم «المرأة في القرآن الكريم».

لتحطيمنا والقضاء علينا قضاء مبرما .

وما هذه الأنماط الجديدة، والبدع المنكرة، والتقاليع و(الموضات) في الأزياء والثياب، والأحذية والشعور، والأشكال والعادات، والتقاليد والأخلاق، والتي تتغير بسرعة وباستمرار، ليجري الناس وراءها لاهثين، لا يكادون يدركونها حتى تتغير من جديد وهكذا، وتكلفهم من الجهد والوقت والمال ما يكفي بعضه للقضاء على أعدائها، ورميهم فعلاً في البحر، وما هذه الفِرق الجديدة ـ كذلك ـ كالهيبيين والخنافس والعراة والوجوديين، وما لست أدري مما يغزونا ويرد إلينا من هنالك، من بلاد السين والتايمز والميسيسبي والتايبر وغيرها، أقول: ما ذلك كله إلا بعض جراثيم هذا الوباء الفتاك، والوافدة الخطيرة التي تجتاحنا بكل قسوة وعنف، ونحن ساهون لاهون، وسادرون غافلون!!

إن مثلنا معهم مَثَل مصارع الثيران، المشهور في إسبانيا، إذ يعمد إنسان ضامر ونحيل إلى مصارعة ثور ضخم قوي هائج، ويتغلب عليه، لا بقوته وشجاعته، بل بخداعه ومكره، إذ يعرض للثور هدفًا كاذبًا، وشعاراً خادعًا، فيرفع له راية حمراء تستثيره وتهيجه، وفيصبُّ الثور جهده كله، ويركز تفكيره جميعه

لتحطيمها وتمزيقها، بينما خصمه الحقيقي، وهو المصارع وسلاحه بعيدان عن ساحة إدراكه ووعيه، فيضربه الضربة تلو الضربة: ويطعنه الطعنة إثر الطعنة، حتى إذا أرهقه وأعياه، واستنفد منه كل قواه، ضربه الضربة القاضية، وغرس في جسمه حربته الماضية، وتركه يخر صريعًا يتخبط بدمه، بينما يعلو صياح المشاهدين، وتدمى أكف المصفقين استحسانًا وتشجيعًا، ثم يجرّون الثور المسكين إلى خارج الحلبة، ثم إلى مصانع تعليب اللحوم. ليكون غذاء شهيًا يدر عليهم المال الوفير.

إننا مع الأسف الشديد نرى أعداءنا الماكرين الخبثاء يلعبون معنا هذه اللعبة المجرمة المدمرة، وقد انطلت علينا خدعتهم، وانسقنا معهم في مكيدتهم ومخططهم، فأصبح مجتمعنا يلف ويدور حول لذاته وشهواته، ويجهد ويلهث وراء لهوه وعبثه، لا يشغله غيرها، ولا يفكر في سواها، حتى أن الكثيرين من أبناء جلدتنا وبني قومنا لم يعد لديهم وقت للبحث والتفكير فيما عداها من الأمور العظام، والقضايا الكبار التي يتوقف عليها واقعهم ومستقبلهم، كأنهم مخدَّرون منومون، لا يملكون من أمر نفوسهم شيئًا، بل هم منساقون بقوة جنونية هائلة إلى تلك الليالي الحمراء والموائد الخضراء، يعبُّون منها ولا يرتوون،

وكلما ملوا صنفًا أحدثوا لهم صنفًا، إلى آخر ما هنالك مما ابتدعوه من الوسائل المنكرة المنحرفة، والسبل الآثمة الشاذة، بمختلف صورها وأنواعها.

وقد صارت المرأة نتيجة لذلك صنمًا كبيرًا، ووثنًا جديدًا: يعبده الناس ويطوفون حوله، ويذعنون له ويقدسونه، وربما لا يرون لهم هدفًا أعظم منه، وهذه رجعية غريبة، ووثنية جديدة في هذا القرن العجيب: القرن العشرين!

ومن مظاهر ذلك إقحامهم صور المرأة بأشكال عارية مخجلة يتندى منها جبين الفضيلة والأخلاق، ويشمئز منها العقل والقلب في لوحات الدعاية، ومشاهد الإعلان عن مختلف البضائع والأشياء في الصحف والمجلات، والسينما والتلفاز، ويستغرب الإنسان العاقل هذا الدرك المنحط، البعيد عن كل فضيلة وذوق ومنطق وواقعية، إذ صارت صورة المرأة العارية عمدة الدعاية عندهم، حتى للأشياء التي لا صلة لها إطلاقًا بالمرأة وجوّها وحاجاتها[1]، وليس لذلك من تفسير إلا أن

---

(١) من المشاهد الدعائية الغريبة صورة أطلعني عليها بعض الأصدقاء في مجلة دعائية خاصة (بالموبيليا) تمثل امرأة عارية تمامًا، قد تمددت على ظهر مجلي في مطبخ حديث، وصورة أخرى عرضت للدعاية لإطارات السيارات=

قصدهم من ذلك إنما هو إثارة غرائز الرجال، واستغلالها والمتاجرة بها في سوق النخاسة الجديد.

وقد يظن البعض أن هذا إكرام من الرجل للمرأة، وتقدير منه لمكانتها، وتمجيد لشأنها، ولكنه في الحقيقة والواقع على العكس من ذلك إهانة لها وإذلال، واحتقار لها وامتهان؛ ذلك لأن الرجل الذي هو من هذا النمط، إنما يقدس من المرأة جسدها، وإنما يعبد فيها ما يحقق له متعته ولذته، فهو يعبد في الحقيقة ذاته، ويمجد شهوته، وما المرأة عنده إلا وسيلة رخيصة للوصول إلى ذلك، حتى إذا ملَّها أو سئمها، ـ وسرعان ما يكون ذلك ـ أو إذا لم يجد فيها ما يثيره، أو إذا أصابتها مصيبة من مصائب الحياة الكثيرة كالمرض والحاجة، والفقر والفاقة، والعجز والشيخوخة، مما لا يستطيع أحد أن ينجو منها، ألقاها بعيداً

=الضخمة، وقد وقفت إلى جانبه امرأة شبه عارية بوضع مثير! وأطلعني أخ آخر على صورة تمثل أربع فتيات عاريات تمامًا، وقفن أمام مقر الوزارة البريطانية يرقصن في عملية دعائية وقحة لمهرجان راقص!

وأنا لا أدري، ولا أظن أحداً يدري، ما صلة هذه المشاهد بالموضوعات التي اختيرت لتكون دعاية لها، وما المنطق المقبول الذي أملى على مصمميها ذلك؟ . . اللهم إلا ما ذكرته من قصد إثارة غرائز الرجال، والمتاجرة بها لكسب الأموال، بالإضافة إلى التخطيط الصهيوني اللعين لإفساد أخلاق

بازدراء كما يلقي الثمل زجاجة الخمر الفارغة، وربما حطمها أو كسرها، دون أن يرعىٰ لها حرمة، أو يرقب فيها عهدًا، أو يحفظ لها ذمامًا، ثم يذهب ليبحث ثانية وثالثة ورابعة عن متعة جديدة، وصيد طريف.

هذه نظرة هؤلاء إلىٰ المرأة، وهذا واقعهم معها، أما الإسلام العظيم، ذلك الدين الرباني الخالد، الذي يعدُّه الجاهلون والأذناب وعبيد الغرب رجعية وانحطاطًا، وتخلفًا وتأخرًا؛ فهو ينظر إلىٰ المرأة علىٰ أنها مخلوق إلهي مكرم، يأمر الرجل ببرها وخدمتها، والتقرب إلىٰ الله بطاعتها، وخفض الجناح لها، ويجعل الجنة تحت قدميها، أمًّا، ويوصي بالعطف عليها والإحسان إليها، ويرىٰ فيها الشريكة المخلصة الصابرة، والروح اللطيفة المؤنسة، التي يحبها وتحبه، ويسعىٰ لسعادتها وتسعىٰ لسعادته، ويحققان ما أرشد إليه ربنا تبارك وتعالىٰ في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1] زوجة، ويطلب من الرجل إكرامها والحنو عليها، وعدم الابتئاس والتواري عن القوم إذا بُشِّر بها، ويأمره أن يتعهدها بالتربية والتوجيه، ويعد من يعول منهن اثنتين فصاعدًا

عليها، وإقامة إمبراطوريتهم الموعودة المزعومة علىٰ أنقاضها.

أن يكون مع رسول الله ﷺ في الجنة كهاتين، بنتًا، ويأمر بصلتها ومحبتها ورعاية شؤونها، وتفقد أحوالها، والعمل على إسعادها وإدخال السرور عليها، أختًا وعمة وخالة.

وفي هذه الظروف العصيبة ترتفع بين الحين والآخر صيحات تنذر بالخطر، وتبصِّر بالعاقبة، وترشد إلى سفينة النجاة، وتهيب بالناس إلى سلوك سبيل الحق والخير، فيستجيب لذلك أولو النفوس الخيِّرة المخلصة، ويعرض عنها من غلب عليه الهوى، وأعمت عينيه العاجلة، وطمست بصيرته الشهوة.

ومن هذه الصيحات الجريئة التي انطلقت من قريب صوت أديبة كبيرة، وكاتبة فاضلة، هي السيدة نازك الملائكة، الشاعرة العراقية الشهيرة، والأستاذة في جامعة الكويت، والغنية عن التعريف والتقديم، إذ ساءها واقع المرأة العربية المسلمة، وما انجرفت فيه من انحراف وفوضى، وما انساقت إليه من عبودية وتحلل، وهالها المستقبل المظلم الذي ستؤول إليه البلاد من جراء ذلك، فرفعت صوتها «محذرة المرأة العربية مما انساقت إليه من تقليد وميوعة وذل وغير ذلك مما يوحي بعدم شعورها بخطورة المفترق الزمني الرهيب الذي تقف فيه أمتنا بين أعدائها الشرسين

---

(١) سورة الروم: الآية ٢١.

المستقتلين: إسرائيل وأمريكا والشيوعية»[١].

وهي تخاطب بنات جنسها، وعقلاء قومها، والمسؤولين في بلادها تقنعهم بالحجة والبرهان، وتبصرهم بالمنطق والدليل بما رأت، وتدعوهم بصدق وإخلاص وحرارة لدفع هذا الخطر المستطير والشر المستبين، وإنقاذ العباد والبلاد قبل فوات الأوان.

وقد ألقت الكاتبة الفاضلة هذه المحاضرة القيمة في جامعة البصرة، وشهدها جمهور المثقفين فيها، ونالت إعجاب المخلصين الغيورين، والمفكرين المنصفين، وقد نشرتها مجلة (الجامعة) بالبصرة، ثم مجلة الآداب في بيروت، وهي كما قال أخ فاضل: «وإن كانت تعالج ظواهر الجنوح والعبودية في حياة المرأة من منطلقات الفطرة السليمة، والعقل السوي، والكرامة الإنسانية، والمصلحة القومية، فإن هذه المنطلقات تلتقي في التصوير والتحليل، وفي النتائج والأهداف مع معطيات الفكر الإسلامي، والمباديء الأخلاقية التي تتخذ الفطرة الإنسانية والكرامة أساساً لبناء صرح الحياة المثلى».

ونظراً لما فيها من فوائد جليلة، وما يمكن أن يكون لها من

(١) من رسالة الكاتبة الفاضلة إلي.

آثار حسنة، رأيت نشرها من جديد في رسالة مستقلة، بغية تعميم النفع بها، وإيصالها إلى أكبر عدد ممكن من القراء والقارئات، وتمكينهم من الاطلاع عليها، ولذلك كتبت إلى الكاتبة الفاضلة أعرض عليها الفكرة وأستأذنها في النشر، فأرسلت إلي مشكورة ترحب بالاقتراح، وتوافق عليه، وبعثت إلي بنسخة مضبوطة مصححة عن المحاضرة (مستلة) من مجلة (الجامعة) المشار إليها: وأنا إذ أشكرها على ذلك مقدراً هدفها النبيل، ومقصدها الشريف، أرجو مخلصًا أن تلقى هذه الرسالة آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية، وأن يتحقق بها ما توقعته من أثر طيب حميد في جعل شبابنا وشاباتنا ـ وهم أعزاء علينا والله وعزيزات ـ يثوبون إلى رشدهم، ويلتزمون الجادة المستقيمة، والسبيل القويمة التي سلكها سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، فأيدهم الله تعالى ونصرهم وأعزهم، وأنا ضامن لهم إن هم فعلوا ذلك أن يعود إليهم عزهم المفقود، ومجدهم المنشود؛ ولعلهم فاعلون ذلك إن شاء الله.

وفي الختام أرجو الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن

يحقق فيها النفع ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

محمد عيد العباسي

دمشق في ٢ محرم الحرام ١٣٩٣هـ.

الموافق لـ ٤ شباط سنة ١٩٧٣م.

---

(١) سورة هود: الآية ٨٨.

مآخذ اجتماعية

علــى

حياة المرأة العربية

د/ نازك الملائكة

الارتباط الوثيق بين مظهر الإنسان وبين روحه وفكره[1]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فليست هذه المحاضرة * [2] دراسة في فلسفة الحياة الاجتماعية، وإنما هي بحث في المدلولات الفكرية لحياة المرأة، حاولت فيه أن أحلل الأزياء إلى مضمونها الروحي، وأربطه بذهن المرأة وحياتها الاجتماعية والقومية.

ولقد يبدو، أول وهلة، أن الزي الإنساني عرض خارجي لا يرتبط بأعماق الإنسان، غير أنني لست من أنصار هذا المذهب: وإنما أدين بأن كل مظهر من حياة الإنسان مرتبط بصميم روحه،

---

(١) هذا العنوان وما يتلوه من العناوين لم تكن في (الأصل) الذي بعثت به الكاتبة الفاضلة، وقد أضفتها توضيحًا لأفكار البحث الأساسية، وتسهيلاً لفهمها وترسيخها في أذهان القراء الكرام.

(*) أصل هذا الكتاب محاضرة ألقيت في الموسم الثقافي الرابع لجامعة البصرة للعام ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ في ٥/ ٣/ ١٩٦٨.

(٢) التعليقات التي كانت في (الأصل) أشرت إليها بنجوم.

فالحياة مترابطة موحدة لا يمكن تجزئتها، والملبس يؤثر في العقل، ويحدث تغييراً في روح الإنسان. وعندما تختار المرأة العربية اليوم لنفسها أن تكون متبرجة مبالغة في الأناقة، فهي بذلك تصدر على ذهنها وروحها حكمًا قهاراً يزج بها في ظلمات فلسفية وفكرية لا حصر له. وأبرز هذه المسالك المظلمة أنها تخلي حياة المرأة من فكرة الحرية إخلاء تامًا.

المفهوم الصحيح للحرية:

ولكي نوضح معنى حكمنا هذا لابد لنا أن نقول بدءاً: إن هناك خطأً عامًا في تعريفنا للحرية، فنحن ننسب إليها مواقف ليست منها في شيء، مثل أن نقول: إن المرأة قد تحررت، ونريد بذلك أنها أصبحت قادرة على الخروج، والدراسة في الجامعة، والعمل في وظائف الدولة. فإن هذا الحكم يتغافل عن أصناف العبوديات التي تعشش في روح المرأة، وتسيطر على عقلها. إن فتاة الجامعة والوظيفة ما زالت تحمل في نفسها نظرة الازدراء المهينة التي كان المجتمع يحدجها بها، فهي أسيرة وإن حسبت أنها حرة.

أما التعريف الحق للحرية في نظرنا فهو سقوط القيود والأغلال عن الذهن الإنساني بحيث يقوى على فرض نظرة

جديدة أصيلة إلى الأشياء كلها، ويستطيع أن يغيرها وفق حاجاته الروحية. فإذا وجد خطأ أو قبحًا أو ضررًا استطاع أن يحتج عليه، ويرفضه ويغيره إلى ما ينفع الحياة الإنسانية ويخصبها ويجعلها، والمرأة، مع الأسف، ما زالت تنقصها هذه النظرة الحرة إلى الأشياء.

تحرر المرأة العربية دعوى كاذبة:

لقد تركت الشخصيات النسوية في كتاب (ألف ليلة وليلة) نموذجًا سيئًا للمرأة العربية، هو نموذج الجارية التي لا يهمها إلا لباسها، ولا ترى في نفسها أكثر من متعة للرجل، تعيش بغرائزها وعليها أن تكون جميلة، وأن تسلّي الرجل وتطهو له الطعام السائغ. وهذا النموذج ما زال المتحكم في حياة المرأة العربية، لم يغيره خروجُها إلى الحياة العامة قطعًا، وكل ما تغير فيها أقوالها. فقد بتنا نسمعها تتحدث عن دور اجتماعي عظيم تقوم به، وخوض لمختلف مجالات العمل والبناء، وتحرر من عبودية القرون المظلمة. غير أن صميم حياة المرأة يكذِّب هذا ويبطل أثره. إن في وجودها تجزيئية واضحة تفرق بين القول والعمل، بين النية والتطبيق، بين الفكر والحياة. وما زالت المرأة تحيا بعواطفها وغرائزها وحدها، منحها الله الذكاء والعقل والإبداع، فلم تستعمل منها شيئًا، وبقيت أشبه بدمية مثلها

الأعلى الأناقة المسرفة، وبذلك جحدت عطاء ربها وجحدت المجتمع وجحدت ذاتها.

واقع المجلات النسائية:

ولعل خير بداية نفتتح بها دراستنا لحياة المرأة العربية أن ننظر في المجلات التي تسمي نفسها نسائية؛ فماذا سنجد فيها؟ إنها في أغلب الحالات مجلات أزياء، لا تجعل للمرأة هدفًا أبعد من ملابسها وحقائبها وأحذيتها. وهذه المجلات تعامل المرأة الحديثة معاملة جواري ألف ليلة، فتكتب لهن أمثال هذه العناوين المهينة: «سيدتي: ماذا تلبسين في رحلة بحرية؟» أو «فساتين للصباح» أو «تسريحات للشعر بعد الظهر» أو «بأي ملابس تظهرين في حفلة العشاء؟» فما تلبسه المرأة في الصباح يختلف عما تلبسه في المساء، وما يلبس في حفلات الرياضة يختلف عما يلبس بعد الظهر. وثياب المنزل تختلف عن ثياب الخروج. ولضفاف البحر ملابس خاصة. وعلى المرأة المتوسطة أن تكون لها ملابس لكل هذه المناسبات، وأن يكون لها أكثر من واحد لتستطيع التغيير والتبديل. ولكل ثوب عقدٌ خاص به وأقراط، وأحمر شفاه ينسجم معه وحذاء وحقيبة. واختصاراً للموضوع تجد المرأة أنها إذا أرادت أن تكون أنيقة كما تدعوها المجلات

والإذاعات فسوف تجد أن الحياة كلها لا تكفي للأناقة.

بين الجمال والأناقة:

وما المدلول الفكري الذي يختفي وراء هذا؟ إن معناه أن الجمال الإنساني أصبح من التكلف والتعقيد بحيث لا يمكن تحقيقه إلا بتبديد الوقت وهدر الطاقة وقتل الروح. ولا ينبغي أن تسمح المرأة الحرة أن يجعلوا جمالها كلفة روحية وعقلية باهظة تنفق لها من حساب إنسانيتها، وتفقد في سبيلها حريتها وكرامتها.

والواقع أن النظرة التي تجعل اكتمال جمال المرأة بالملابس الكثيرة نظرة تجعل الجمال مرادفًا للأناقة؛ وهما في واقع الأمر ليسا مترادفين مطلقًا. وما الجمال وما الأناقة بالمعنى الروحي؟ أما الجمال فهو ملك للوردة الحمراء المشتعلة بالحرارة واللون والخصوبة على غصنها اللّدن. والوردة لا تتأنق. الجمال ملك الفراشة التي وهبها الله ألوانها، ولم تضع على شفتيها أحمر الشفاه، ولم تزجج حاجبيها بالقلم الأسود. الجمال ملك لفتاة ذكية العينين بسيطة المظهر، يشع وجهها عطفًا وحنانًا، وكأنها تريد أن تحتضن الوجود كله وتغمره بمشاعرها الكريمة.

وهذا الجمال المرهف العذب مبذول زهيد الثمن، تملكه كل فتاة دون أن تضيع وقتها في أسواق الملابس وعند الخياطة الجاهلة. إنه جمال ينبع من الروح الكبيرة المستوعبة، والذهن الحر المرن، والقلب النابض الرقيق. وهو جمال الخلق الكريم والعذوبة، والخشوع لله والنزاهة وكبر النفس.

وهذا الجمال لا علاقة له بالملابس والخلاق، لأنه يتألق على وجه كريم وعيون حنون معطاء: وهو يلمع على الشعر البسيط المترسل الذي لا يهينه الحلاق بالعبث به. هذا هو الجمال، فتعريفه أنه البساطة الإنسانية، والفطرة كما خلقها الله حيية روحية متفتحة.

وأما التأنق فما أتفهه وما أشد إذلاله لروح الإنسان! التأنق هو الوسائل المصطنعة التي يظنونها تؤدي إلى طريق الجمال. أو لنقل: إنه الجمال المزيف المصنوع بالوسائل الآلية وسواها.[1]

---

(١) يشير إلى ذلك الشاعر الكبير أبو الطيب حيث يقول:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

وقد أدت هذه الوسائل المصطنعة إلى انخداع كثير من الشباب والرجال المغفلين السذج، بنساء فاجرات عاريات من الحسن والجمال، ذوات شعور قليلة متقصفة، وأشكال قبيحة، فوضعن شعوراً مستعارة، ورموشاً مصطنعة، وربما ألواناً لعيونهن مزيفة، وأعضاء مستعارة، ووضعن=

فبدلا من أن تعتمد الفتاة على مرونة ذهنها، وسعة ثقافتها، وجمال روحها، ورقة ابتسامتها، نجدها تعتمد على كثرة ملابسها والتصنع في شعرها. وبدلاً من أن توسع آفاق فكرها بالمعرفة والعلم، تلجأ إلى التبرج والتغنج، والملابس القصيرة الضيقة التي تبرز أعضاء الجسم كما تبرز أجسام الجواري في سوق النخاسين.

جناية التأنق على عقل المرأة وروحها:

فالتأنق شر عظيم يحيق بذهن المرأة، ويقتل روحها، ويذل عقلها لأنه يمدح مظهرها على حساب ذهنها، ويكرّ بها إلى العصور الغابرة حين كانت المرأة تباع وتشترى في قصص ألف ليلة.

وقد تظن الفتاة أن تبرجها شيء ظاهري لا يمس عقلها، فهي تستطيع أن تكون حرة رغم إمعانها في الأناقة، وإسرافها في التصنع. وهي في هذا مخطئة، فإن لكل عمل يقوم به الإنسان

=العطور والمساحيق، فوقع في هواهن الجاهلون، ولهث وراءهن المغفلون بغية التمتع بهن سواء أكان بالحلال أو الحرام، وقد حدثت حوادث من جراء ذلك مضحكة مبكية، أصيب فيها هؤلاء بالخيبة والإحباط بعد أن خسروا الكثير من الجهد والمال، فهل من معتبر!

آثارًا فكرية وروحية بعيدة المدىٰ. إن أعمالنا تؤثر في عقولنا وأرواحنا وتعيد صياغتها، فإذا لم يتحكم العقل في سلوكنا تحكّم سلوكنا في عقلنا.

وأول نتائج هذا التحكم أن التأنق يذل المرأة ويقتل كبرياءها. وأساس هذا الإذلال أن إقامة أسس الأناقة علىٰ كثرة الملابس، وعلىٰ الحلاق يشعر المرأة بأن الجمال هو الشيء الذي ينقصها، لا الشيء الذي تملكه. فإذا أرادت أن تكون جميلة وجب عليها أن تكافح في سبيل ذلك، فتعمل ليل نهار في استكمال ذاتها الناقصة.

ومعنىٰ ذلك أن مبدأ التأنق يقوم بدءًا علىٰ الإقرار بأن المرأة لا تملك جمالاً، وإنما هي ناقصة، وعليها أن تصنع الجمال صنعًا لتجذب عيون الرجل. فالتأنق إكمال لنقص، بخلاف **الجمال الذي هو فيض من السحر** والعذوبة، يطفح ويتدفق ويغمر الحياة كلها. **التأنق نقص والجمال فيض**، وذلك هو الفرق الفلسفي بين حالتين، تفقد المرأة في أولاهما كل شيء، وتضطر إلىٰ الكفاح، وتمنح في الثانية خصبًا وعذوبة وكمالاً. وفي ظل الأناقة يصبح الجمال الفطري عاطلاً من القيمة، فإن الجميلة كالقبيحة مضطرة إلىٰ أن تكون أنيقة، وأن تضيع وقتها في هذه التوافه. فكم تخسر

المرأة حين تطرح الجمال وتتمسك بالأناقة!!

تكاليف الأناقة الباهظة:

وطريق الأناقة، كما يعلم كل إنسان، طويل مديد كله عقبات. فأول ما تحتاج إليه المرأة في ذلك أن يكون لها وفر من المال يفيض عن حاجتها فالغنى المتوسط شرط من شروط التأنق. أما الجمال فكلنا يعرفه فقيراً متواضعًا لا يملك شيئًا. إنه منحة الطبيعة[١] المعطاء للفتاة الرقيقة البسيطة. والمرأة الأنيقة يجب أن تملك ثيابًا كثيرة وملحقات لا حصر لها. ولا يخفى عليكم أن مؤسسات الأزياء قد عقّدت هذه الأشياء تعقيداً مسرفًا. فالحرص على أبسط مستوى في هذا يقتضي مالاً كثيراً.[٢] ومن

---

(١) هذا استعمال شائع، والصواب أن يقال: منحة الخلاق الكريم العظيم.

(٢) إن الأناقة التي ابتليت بها نساء زماننا والتي نستودرها من الغرب الكافر تقتضي تغيير النساء ثيابهن وأحذيتهن وأثاث بيوتهن وأمتعتهن كل بضعة أشهر أو كل سنة على الأكثر، بسبب التغيير الدائم والتجديد المستمر الذي تدعو إليه دور الأزياء ومجلات (الموضة) وغيرها، فيلقين كل ما عندهن من ذلك في أكوام القمامة وسلات المهملات مع أنه يكون ما يزال جديداً ولم يلبس إلا قليلاً، ثم يكلفن أزواجهن المساكين المبالغ الباهظة لشراء أزياء وأثاث وأمتعة جديدة، وربما أدى ذلك إلى خصام وجدال ونزاع بين الزوجين، وأحيانًا كثيرة إلى خراب بيوت، وتشريد أولاد وشقاء أسر=

ثم فإن مبدأ التأنق حين يصبح هو القانون النافذ في المجتمع يحرم نساء الطبقة الفقيرة أن يكن جميلات، وبذلك يصبح الجمال حكراً تملكه الطبة المرفهة وحدها. وفي ذلك إذلال للفقر وللفتاة الفقيرة، فالتأنق ضرب من الطبقية الاجتماعية بينما الجمال ديمقراطي شعبي مشاع يملكه الكل، ولا يشتريه المال والغنى. والجمال في هذا شأنه شأن العناصر الخيرة في حياتنا جميعًا، فمثله في شيوعه العقل والخيال والخلق والفضيلة: فإن كل هذه الأشياء العظيمة لا تشترى بالمال، وإنما هي منحة الله للفرد يملكها الفقير والغني معًا، فمن الخطأ أن يتبنى المجتمع مبدأ التأنق الذي يفرض الانحراف على طبقات الشعب.

إن مدلول هذا كله هو أن الأناقة ترفع الجمال إلى مستوى الأشياء الباهظة الثمن، وفي هذا ما فيه من إذلال لكل فرد في المجتمع. ومن ثم يصبح التأنق انحرافًا في تعريف الجمال يقسم

=بسبب ذلك، كل هذا حتى لا يتهمن بالتأخر والتخلف عن مسايرة ركب (الموضة) المجرمة: ترى من المستفيد من ذلك إلا الشركات الرأسمالية الأجنبية والقوى الصهيونية والاستعمارية التي تكيد لنا كل مكيدة وتتربص بنا الدوائر؟ فهل من مدكر؟

المجتمع إلى طبقـات ، ويجعل الثورة[١] التي نتغنى بها مجرد ألفـاظ على شفاهنا ، ولا تطبيق لهـا ولا حياة فيها . والثورة كل ثورة ، لو أمعنا النظر ، مناقضة للأناقة المسرفة . الثورة طريق الفقر والتـواضع والبسـاطة ، والأناقـة درب الأغنياء يفرشـونه بالحرير والعطور والذهب .

وهذا الذي نقول ليس مجرد حكم شعري (خيالي) منمق فقـد كـانت النساء في الاتحاد السوفييتي السابق وبقيـة البلاد الشيوعية بسيطات الملبس ، مسترسلات الشعـر ، لا يعرفن التأنق[٢] ، وإنما تأتينا هذه الأناقـة الشائهـة من بلاد الاستعـمار

(١) إن كان المراد بالثورة الثورة على عناصر التخلف والضعف بالطريق السلمي دون الخروج على شريعة الله ودينه فنحن معها ، وأما إن كانت ثورة طبقة على طبقة فنرى أن الإسلام يدعو إلى الإصلاح بتحكيم شريعته التي تحقق التكافل والسعادة وتوصل إلى كل ذي حق حقه على أساس سلمي يقوم على المحبة والأخوة والإيمان ، ويجنب المجتمع ويلات الصراع والنزاع الطبقي المدمر .

(٢) أقول : كان هذا في الماضي ، ولعل سببه كان الفقر وعدم توفر الأمور الكمالية ، وأما الآن فإن من الملاحظ أن روسيا والبلاد الشيوعية السابقة الأخرى قد أصيبت بعدوى التأنق والتهتك ، وأخذنا نقرأ في المجلات والصحف عن معارض للأزياء الغربية تقام فيها ، كما أن أبناء تلك البلاد الذين يفدون إلى بلادنا لا يقلون عن أبناء الدول الغربيـة في التحلل =

والرأسمالية في الغرب، وهذه حقيقة لا نكران لها، ومن عجب أننا لا نتدبرها مطلقًا.

جناية الأناقة على الوقت:

بعد أن درسنا كيف يذل التأنق المرأة بأن يجعل الجمال كفاحًا مريرًا بدلاً من أن يكون طبيعة وفيضًا، وبعد أن لاحظنا كيف تذل الأناقة الشعب بأن تقسمه إلى طبقات متمايزة، نأتي إلى جناية أخرى تجنيها الأناقة المسرفة على الإنسانية. وتلك هي الجناية على الوقت الذي هو ثروة الأمة. إن الأناقة النموذجية التي تدعو إليها مجلات المرأة تقتضي من الوقت ما لا تتسع له الحياة. فلقد تربصتُ بهذه المجلات عدة أشهر ذات مرة، وأحصيت مجموعة الأشياء التي تحتاج إليها المرأة لإنجاز الأناقة المثلى، فوجدت الحياة كلها لا تكفي. لقد حقروا المرأة بأن جعلوا شعرها النموذجي تعقيدًا عاميًا لا يحققه إلا الحلاق الذي يهينها

=والخلاعة، أضف إلى ذلك أن المبادئ الشيوعية لا تعترف بحلال أو حرام، أو مبادئ دينية أو خلقية، وأخيرًا فإن دعاة الشيوعية في بلادنا من أشد الناس ميوعة وإباحية، ومن أشهدهم حماسة للدعوة إلى الاختلاط، ومحاربة الحجاب والحشمة، والتستر، بل إنهم يتخذون المجالس والحفلات والرحلات المختلطة وسيلة لاصطياد الشباب، واستهواء الجنسين، لإيقاعهم في حبائلهم، والتأثير عليهم لاعتناق مبادئهم الباطلة، وسياساتهم الهدامة.

بإجلاسها تحت المجفف ساعتين، ليصفف شعرها تصفيفًا مصطنعًا. وقد فرضوا عليها العناية ببشرتها نصف ساعة كل مساء، وربع ساعة للأهداف؛ وكذا من الوقت للأظفار، ووقتًا للعناية بالكفين والقدمين، وتمارين رياضية لتنحيف الخصر؛ وأخرى لمنع تجعدات الوجه؛ وتمارين استرخاء، وحمامات بخار.

وكل هذا يأكل وقت المرأة وعقلها؛ ولا يبقي منها جانبًا للشعور الإنساني؛ وإنما يحولها إلى دمية أنيقة لا روح لها؛ حركاتها آلية، وبسماتها مصطنعة.

إن الوقت الثمين الذي يضيع عند الخياطة كان يمكن أن ينفق في إسباغ الحب على أب شيخ مريض؛ أو زوج مرهق؛ أو طفل يحتاج إلى التوجيه. وبدلاً من أن تذهب الفتاة إلى الحلاق تستطيع أن تطالع كتابًا ينير عقلها ويهدي روحها. بدلاً من أن تذهب إلى خبير التجميل تستطيع أن تنتمي إلى جمعية تخيط الملابس للاجئين؛ وتكسو طفلاً عربيًا عاريًا.

إن وقت الفتاة هو ثروة الأمة، وهي لا تدري. فكم ساعة من الوقت يكسب المجتمع لو حذفنا الحلاق من حياة النساء؟

والشعر المسترسل الطبيعي هو الجمال الحق، فيه روحانية وجلال وبساطة؛ ووراءه قيم اجتماعية، لأنه لا يكلف وقتًا ولا مالاً، ولا يذل روح الإنسان.

وخلاصة الرأي: إن الأناقة مستوى من الجمال لا يوصل إليه إلا بإضاعة الوقت الكثير النافع الذي كان ينبغي إنفاقه في جهات أخرى؛ ولا يصح للمجتمع أن يرفع مستوى الكماليات بحيث تصبح قاتلة للحياة الإنسانية نفسها. إن المقياس الأعلى هو الإنسان وخصب روحه؛ وقوة انطلاقه نحو المستقبل الأسعد. ذلك مقياس كل شيء ومنه الجمال.

استعباد دور الأزياء للمرأة:

والأناقة بما فيها من تكلف وصناعة تفرض على ذهن المرأة صنوفًا شتى من العبوديات؛ تعمل في حياتها وهي خانعة راضخة؛ لا تحتج ولا تقوى على الاعتراض. إن دور الأزياء تحمل سيفًا بتارًا؛ وترفع سبابتها آمرة ناهية فتصيح بالمرأة: البسي هذا واخلعي ذلك؛ فلا تزيد المرأة على الرضوخ الخانع دون أن تفكر لحظة واحدة في رفض هذه الأوامر. وفي أحيان كثيرة تأمر دور الأزياء بما هو مضر أشد الضرر؛ ومن عجب أن المرأة تقبل وتسكت؛ فكأنها منوّمة لا قدرة لها على إنقاذ نفسها؛ كتلك

الطفلة التي كانوا ينومونها ويسقونها ماء الملح زاعمين لها أنه مشروب حلو؛ فتشربه خاضعة مصدقة مع أنه ملح صاف.

الكعب العالي:

ومن أبرز هذه الأوامر المتعسفة التي قضت بها دور الأزياء؛ وأشقت بها حياة الملايين من النساء في العالم؛ لبس الكعوب العالية[1]؛ وهي بدعة ظالمة لم يعد الناس يلاحظون ما فيها من هوان وشر لطول ما ألفوها. والمألوف الشائع يسكت العجب ويميت الاحتجاج؛ لأنه يتحول إلى عادة مقبولة. ولعمر الله كم امرأة في العالم قد سألت نفسها: لماذا ألبس حذاء ذا كعب عال يضايقني في المشي ويضر باستقامة ساقي؟ وكم امرأة قد صنعت شيئًا في مقاومة هذا الطغيان المذل؟

أما الأضرار المادية والروحية التي يفرضها الكعب العالي

---

(١) قلت: شاعت هذه (الموضة) السيئة المؤذية التي نقلناها من الأمم الغربية الكافرة سنين طويلة في وقت كتابة الكاتبة هذا البحث: وذكر أستاذنا الألباني في «السلسلة الصحيحة ـ ٤٨٦» حديثًا في قصة امرأة ممن كان قبلنا من بني إسرائيل: كانت قصيرة فاتخذت رجلين من خشب، وخاتمًا حشت فصه أطيب الطيب، فإذا مرت بمجلس حركته فنفخ ريحه، كل ذلك لتلفت نظر الناس إليها، فيبدو أن هذه الأفعال الخبيثة من أخلاقهم من قديم الزمان. فالعجب من المسلمين الذين يقلدونهم ويتشبهون بهم في ذلك!

على المرأة فهي كثيرة سنحصيها، وندرس صلتها بوضع المرأة الفكري العام:

أضراره الصحية:

وأبسط وجوه الضرر التي ينزلها الكعب العالي هو الوجه الصحي. فإن الله قد خلق القدم مسطحة لحكمة عظيمة تنسجم بها القدم مع الجسم؛ فيساعده ذلك على الحركة والحياة والنمو. وما أظن أي إنسان متعلم يقوى على مناقشة هذا؛ فالصحة تتطلب أن نلبس الكعب الواطئ؛ والمشية الطبيعية التي تساعد الجسم على الرشاقة والجمال هي مشية تنبسط فيها القدم ويرجع الصدر إلى وراء. وكل امرأة سليمة لم تشوه الأباطيل ذهنها تعترف بأن السير بهذه الكعوب عسير مزعج[1].

---

(١) قال الأديب الكبير علي الطنطاوي رحمه الله تعالى في ص ٢٥ من كتابه القيم (مع الناس): «والنساء يتخذن هذه الأحذية الفظيعة ذوات الكعوب العالية، مع أن المشي بها أصعب من المشي على الحبل، ومن لم يصدق من الرجال فليمش مئة خطوة على رؤوس قدميه، وهي فوق ذلك تصلب عضلات الساق، وتشوه جمالها، وما للبسها معنى، وليس فيها جمال، ولكن هكذا يريد الناس».

ثم روى حادثة طريفة عن امرأة استعبدتها هذه الأزياء الغربية الغريبة فقال: «ورأيت مرة امرأة واقفة في الترام، والمقاعد خالية، وكلما دعوها لتجلس=

وأعجب العجب أن هناك سيدات تبلغ بهن عبودية الذهن أنهن يزعمن أن الكعب العالي أسهل في المشي عليهن من الكعب الواطئ. وهن يناقشن في ذلك متحمسات، فما مدلول هذا؟ مدلوله الواضح أن طول ما ألفن هذا القيد قد أمات إحساسهن الطبيعي؛ وجعلهن يدافعن عنه كما تدافع المرأة الصينية القديمة عن الأربطة الضيقة الجارحة التي يربطون بها قدمها لتبقى صغيرة؛ فيصبح الأسْر عادة. ولعل ذلك يشبه موقف ذلك العبد الذي تعلم أن يضربه سيده، حتى إذا كف يومًا عن ضربه استاء وضاق وشعر أنه ناقص. فالدفاع عن الكعب العالي من هذا الصنف.

وأبسط وسيلة لإثبات هذا أن نسأل رجلاً أن يلبس الكعب العالي؛ ويسير نصف ساعة وسيرى معنى ما نقول؛ فإن السير بالكعب يكاد يكون مستحيلاً، وأنا شخصيًا لم أستطع حتى اليوم أن أحتمله. والمرات القليلة التي أرغمت فيها على لبسه كانت أتعس أوقات عمري، وقد شعرت خلالها بازدراء فكري لنفسي؛ وحنق غاضب على الذين وضعوا للمرأة هذه العبودية

=أبت، ثم تبين أنها تلبس إزارًا (خراطة) ضيقًا عجيبًا، لا تستطيع معه المشي إلا كمشي المقيد بالحديد، ولا تستطيع صعود درجة الترام إلا بكشف رجليها، وإخراجهما منه، فلذلك لا تستطيع القعود! تتساءلون لماذا تعذب نفسها هذا العذاب؟ من أجل الناس».

المرهقة. وبقيت أتساءل عن السبب الذي يوجب على المرأة هذا العذاب؛ فلم أهتد مطلقًا، اللهم إلا أن الإنسان الشرير الذي ابتدع هذا الكعب قد ارتجله ارتجالاً دون أية فائدة اجتماعية للمرأة. وقد أرادوا بذلك أن يفرضوا علينا بطء الحركة وقلة الحياة[1].

---

(١) نشرت مجلة «الجديدة ـ ص١٧ بتاريخ ٢٧/ ٥/ ٩٨» مقالاً بعنوان «آخر تحذير طبي يؤكد: الكعوب العالية تسبب التهاب المفاصل» جاء فيه:
«أطلقت مجموعة من العلماء الأمريكيين في بوسطن تحذيرها إلى السيدات، ونصحتهن بالابتعاد الكلي عن الأحذية ذات الكعب العالي، فقد تبين أن الكعوب العالية لا تسبب التعب والإجهاد فحسب، بل يمكن أن تؤدي إلى إصابة المرأة بمرض التهاب المفاصل، وأنها تضاعف من نسبة الجهد والضغط داخل مفصل الركبة الذي يعتبر من أكثر مناطق الجسد تعرضًا لالتهاب المفاصل.
الجهد والضغط داخل مفصل الركبة الذي يعتبر من أكثر مناطق الجسد تعرضًا لالتهاب المفاصل.
وحسب هذه الدراسة التي نشرت نتائجها في مجلة «لانست» الطبية فإن ارتداء الحذاء ذي الكعب العالي يؤثر أيضًا على الكاحل، ويزيد من معدل الضغط على الركبة بنسبة ٢٥ بالمئة؛ وعلى الورك أو مفصل الفخذ الذي يعتبر أيضًا من المناطق الجسدية المرشحة للإصابة بالتهاب المفاصل في مراحل متقدمة من عمر الإنسان».
ترى هل تفيق النساء المقلدات للغرب من غفلتهن وترجعن إلى رشدهن حرصًا على صحتهن الجسدية والنفسية؟ نرجو ذلك وإنا لمنتظرون.

أضرار الجمالية:

ويتبع السبب الصحي في ضرر الكعب العالي سبب جمالي فني يتطلبه الذوق الإنساني السليم. لأن الكعب العالي يضفي التصنع والتكلف على مشية المرأة؛ فتموت الروح الإنسانية الحرة التي خلقت لتكون كريمة مطلقة تفرض ذاتها على كل شيء. وإنما سعادة العقل والروح في أن يكون الجسم حرًا مرتاحًا غير ذليل. والكعب العالي يقتل الروح ويذلها؛ لأنها يفرض علينا أن ندوس طبيعة أجسامنا دون سبب وجيه. فلماذا ينبغي أن تتصنع المرأة في مشيتها؟ قالوا: إن ذلك مقياس الجمال ولذلك جعلوه النمط. ولكن من وضع هذا المقياس للجمال؟ أما الطبيعة فإن مقياس الجمال عندها هو انسجام أوضاع الجسم وحركاته مع وظائفه التي يؤديها. فالحركة الحرة المنطلقة التي لا تتعب الجسم وإنما تنسجم مع بنائه هي الحركة الجميلة دائمًا. إن الجمال هو انسجام أجسامنا مع الحركات التي تؤديها. فإذا أردنا إطلاق أعلى قابلياتنا الفكرية والروحية فإن علينا أن نقوم بالحركات الطبيعية التي تلائم أجسامنا، فبذلك تنمو وتزدهر روحنا، ونملك الحرية والجمال.

والكعوب العالية تقتل الحركة الطبيعية قتلاً، وتذل الجسم

لأنها تفرض عليه حركات مصطنعة، وإذا شعر الجسم بأنه ذليل ذلت روح الإنسان ونكست رأسها وخنعت. ولعله لا يخفى أن التصنع بالمعنى الفلسفي إذلال للجسم والعقل. وإنما الكرامة الفكرية في أن نكون طبيعيين نؤدي أعمالنا ونحن أحرار في حركاتنا، نغدو ونروح في خفة ورشاقة وحرارة.

أضراره النفسية:

وثالث وجوه الضررالكامنة في الكعب العالي الوجه النفسي. فالكعوب العالية تعذب المرأة وتحرمها السعادة بالشمس والحركة. إن جوهر الحياة هو قدرة الإنسان على الحركة، فمن التحرك تنبعث البهجة وينبثق الرضى النفسي العميم. والمرأة لا تقدر على الحركة المنطلقة الطبيعية، فإذا همت بالوقوف والسير خطوات شعرت بقدمها تقيدها، وتفرض عليها الترنح في السير والتعب والتكلف. ولقد تعلمت المرأة تدريجيًا ألا تكون حركاتها متحمسة مبتهجة وإن كانت لا تلاحظ ذلك. إنها قد فقدت القدرة على التعبير بالحركة، وألفت فقدان بهجة التحرك وفرحة الانطلاق. وكم من امرأة ماتت حماستها وفرحتها بالشمس، والحياة وهي تسعى في الطريق بقدمين ذليلتين مربوطتين. تريد أن تنطلق مع عقلها وروحها وتتحرك مع المتحركين، وتدعو إلى

الحياة، والضوء، فتشدها رِجْل أسيرة وضعوا لها كعبًا أحمق، لا معنىٰ له ولا فائدة ولا جمال.

إن سعادة المرأة مثل الرجل في أن تعبر عن نفسها بالحركة والحياة. أما الرجل فقد كان كريمًا عزيز النفس، فلم يستطع أحد أن يضع له مسمارًا في أسفل قدمه، وأما نحن النساء فقد قبلنا الذل وسكتنا علىٰ أن نسلب الحرية والحياة. أمرونا بالتصنع فلم نحتج، وسألونا أن نعذب سيقاننا وظهورنا فخنعنا، وأعطونا الهوان فقبلنا، وبذلك فقدنا بهجة العيش، وقهرت روحنا، وأصبحنا كالدمىٰ التي تحركها خيوط.

أضراره القومية:

ثم نأتي إلىٰ الضرر الرابع للكعب العالي، وهو ضرر منظور إليه من وجهة النظر القومية، فقد فرضت الثورة العربية علىٰ المرأة أن تكون فردًا عاملاً في المجتمع، شأنها في ذلك شأن الرجل،[1] والفرد العامل يحتاج أول ما يحتاج إلىٰ الحركة في

---

(١) قلت: إن من الحق والإنصاف أن نقرر أن ثمة فروقًا خلقية ونفسية واضحة بين الرجل والمرأة، لا ينكرها إلا مكابر معاند، كالحيض والحمل والإرضاع والولادة، ناهيك عن الاختلاف في القوة الجسمية والميول والعواطف= =والغرائز، وبناء علىٰ ذلك فقد خص الله الحكيم كلاً من الرجل والمرأة

العمل والتوجيه، وهذه الكعوب العالية تمنع المرأة من العمل النافع؛ وتفرض عليها بطء الحركة، والتعب الدائم مع التصنُّع المقيت في المشي، مما يتعارض مع صفة الفرد النشيط العملي. ونحن اليوم في عصر البناء، عالمنا العربي متأخر يحتاج إلى سواعدنا كلنا في مختلف الحقول؛ بينما نصف المجتمع مربوط

بأعمال تناسب طبيعته ومؤهلاته، كي تسير الحياة سيراً طبيعياً سعيداً، فخص الرجل بالعمل خارج البيت، وخص المرأة بالعمل داخله، وفي مقدمة ذلك رعاية الزوج، وتربية الولد، ولا يظنن أحد أن هذه الأعمال تافهة لا قيمة لها، بل هي أعمال جليلة وخطيرة: ذلك أن التعامل مع الإنسان أجل من التعامل مع الآلة الصماء البكماء، ولعل المرأة أحق وأجدر بقول شوقي في المعلم: أرأيت أعظم أو أجل من الذي يبني وينشئ أنفساً وعقولاً

فليس من العدل ولا من الخير معاكسة سنة الله تبارك وتعالى والخروج عليها، بل وليس ذلك من الممكن بغير المعاناة الدائمة والشقاء الكبير: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣]. إن من يتمرد على سنة الله فإنها ستحطمه وتدمره وتشقيه، وأقرب مثال على ذلك ما كانت تعانيه المجتمعات الشيوعية وتقاسيه لما أنكرت غريزة التملك في الإنسان، وادعت أنها من أوهام الرأسمالية وافتراضاتها، ثم ماذا؟ لقد صار الاتحاد السوفيتي أثراً بعد عين مع أنه كان أحد القوتين الكبريين في العالم، وكان أقوى ما يكون من الناحية العسكرية والتقنية والبشرية، وهكذا حال كل من يعاند سنة الله تبارك وتعالى.

نعم أباح الإسلام في بعض الأحوال وبضوابط شرعية خاصة عمل المرأة خارج البيت، والمجال هنا لا يتسع لتفصيل ذلك، فحسبي هذه الإشارة، والله ولي التوفيق.

القدم يكاد يكون مشلولاً .

والواقع أن الكعب العالي لا يتفق مع روح المرأة العاملة أي اتفاق؛ لأنه يمنع من الحركة، ويفرض على المرأة البطء. ولا شك أن الأذهان المريضة التي ابتكرت هذه البدعة أول مرة قد هدفت إلى أن تمنع المرأة من أن تسير نشيطة حية كما يسير الإنسان السليم؛ وإنما تتهادى كالمتعب السئم. وهذا من مظاهر عهود العبودية التي عاش فيها المجتمع قديمًا؛ حيث كانت مقاييس الجمال النسوي تؤدي جميعًا إلى إبقاء المرأة مشلولة قاصرة اليد والعقل. وتلك هي العهود التي كان المثل الأعلى للمرأة فيها أن تكون مدللة ناعمة تأكل وتنام الضحى؛ وإذا سارت سارت وئيداً تجر أذيالها الطويلة من البطر والدلال والفراغ.

ولعل المجتمع الغربي يظن أنه قد تخلص من هذه النظرة إلى المرأة، ولكن ذلك ظاهري وحسب؛ والكعب العالي أبرز مثال.

نعم خرجت المرأة الغربية إلى العمل؛ ولكن روحها ما زالت ذليلة، ومقاييس الجمال القديمة ما زالت نافذة في حياتها، وها هو الكعب العالي يصنع شراً مما كانت الذيول الطويلة تصنعه؛ فالذيل الطويل يعرقل السير فقط؛ أما الكعب العالي فهو يعرقل السير، ويذل الروح الإنسانية في الوقت نفسه؛ لأنه كما قلنا

يحول بين الجسم وغريزة الحركة والحياة والانطلاق.

أضراره الأخلاقية:

وآخر صنوف الضرر التي ينزلها الكعب العالي بالنفس الإنسانية هو الجانب الأخلاقي من الموضوع. والكعب العالي، بالمعنى الفكري، مضر بأخلاق المرأة يسيء إليها ويلوّث نفسها. ويرجع سبب هذا إلى أن طائفة من النساء يلبسن الكعب العالي لأنهن قصيرات القامة؛ فيحاولن بالكعب أن يتطاولن لعلهن يساوين الطوال والطويلات. ومن سوء الحظ أن طول القامة اليوم يعدُّ من مقومات الجمال، وذلك هو الذي يدفع بالقصيرات إلى التطاول، كما يدفع الطويلات إلى أن يكنَّ أطول مما هن عليه.

وأول ما نلاحظه في هذا الباب أن كل محاولة من المرأة لإسباغ طول غير حقيقي على قامتها إنما هو كذبة على الطبيعة، وخداع للعقل والنفس.

إن على الفتاة القصيرة أن تشحذ ثقتها بنفسها، وتعتز بطولها دون أن تلوّث نفسها بالكذب والتطاول، فقد خلق الإنسان

كريمًا[١]، ومن كرم الذات أن نعترف بأبعاد حقيقتنا، ونتقبل واقعنا صادقين نزيهين، فلا نكذب على الناس وعلى أنفسنا، ولا نلجأ إلى أساليب مذلَّة نطيلة بها قامتنا بالتزييف والتصنع.

والواقع أن كون الكعب العالي وسيلة من الكذب والنفاق يجعل فيه ضرراً أخلاقيًا واضحًا، فالخلق الإنساني ليس شيئًا نظريًا، وإنما ينبغي أن يشمل الحياة كلها، فنصدق في أعمالنا وأحاديثنا وواجباتنا. والكعب الغالي كذبة تريد بها بعض النساء أن تخدع المقابل، فتوهمه أنها أطول قامة مما هي عليه في الواقع.

وكل كذبة تلوث النفس الإنسانية؛ لأنها تذلها. وسبب إذلال الكذب للإنسان أنه يهدم الثقة بالنفس.[٢] وعندما تدرك المرأة

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء/ ٧٠

(٢) روى الإمام أحمد في «مسنده ـ ٦/ ١٥٢» بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان خلق أبغض إلى أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله ﷺ الكذبة، فما يزال في نفسه عليه حتى يعلم أن قد أحدث منها توبة» وروى ابن سعد في «الطبقات» عن عائشة أيضًا بلفظ «ما كان خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، وما اطلع منه على شيء عند أحد من أصحابه، فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة» رواه الترمذي (١٩٧٣) وحسنه، وغيره، وأورده أستاذنا الألباني في «السلسلة الصحيحة ـ ٢٠٥٢» وصححه.

أنها ترتفع على أطراف أصابعها، وتحتمل الألم والتكلف لتتطاول تشعر بالهوان، وازدراء النفس دون أن تدرك شعورها أو تشخصه.

إن احتقار الذات في هذه الحالة غير واعٍ، وهو يُنزل بشخصية الفتاة الضرر دون أن تدري. وتلك بداية غلطة روحية عظيمة تفقد المرأة ثقتها بنفسها، والثقة بالنفس كنز الإنسان الأعظم، ينبع منها الذكاء والبطولة والعظمة. ولا أظن أية امرأة يخطر لها أن الكعب العالي يسلبها شخصيتها الروحية والفكرية؛ ذلك أنه يشعرها بأنها لم تخلق طويلة بالقدر اللازم، وأن الخالق سبحانه وتعالى قد أساء إليها، وحقرها بالقِصَر غير المقبول، فلا بدّلها من إضافة يسبغها عليها حذاؤها. إن عليها أن تكون ذات بهتان وتصنّع وباطل لكي تساوي الطوال؛ ومن هنا ينبع الإذلال والزيف في شخصيتها.

الحكمة الإلهية في جعل المرأة أقصر من الرجل:

ولنسأل أنفسنا حقًا: هل ينبغي للمرأة أن تكون أطول مما هي عليه؛ وهل أخطأ الخالق سبحانه بجعلها أقصر قامة من الرجل؟ في الواقع إن الخالق الكريم قد أحسن صنعاً عندما جعلنا أقصر من أزواجنا وآبائنا وإخوتنا، فإن المرأة تأوي إلى ظل الرجل، وتطلب حمايته وحنانه، وهي لا تستطيع أن تحيا من دون ذلك،

وقد جعلنا الخالق أقصر قامة من الرجل لحكمة كريمة. ولو تأمل الرجل دخيلة نفسه لوجد أنه يسعد حين يجد نفسه أطول من زوجته وأخته وبنت عمه؛ وكذلك تحس المرأة بالرضى النفسي وهي تجد أنها أقصر من الرجال؛ ومن ثم فإن هذا الكعب العالي غليظ لا فهم له ولا ذوق. إنه تمرد على الطبيعة النفسية للمرأة والرجل، فكم من امرأة تسير اليوم إلى جانب زوجها أو أخيها أو أبيها وهي تبدو أطول منه بالكذب والتصنع! ولو كان الخالق يعتبر طول المرأة ضروريًا لاستطاع في يسر وسهولة أن يضع لها عظمًا في أسفل كعبها بدلاً من الكعب العالي، ولكن حكمة الله أوسع من أن ندركها كلها. والخطأ في الموضوع خطأ البشر، جلَّ الخالق العظيم أن يكون عمله ناقصًا أو مغلوطًا[1].

---

(١) أقول: إن هذا التحليل الصائب، والتعليل الجميل لينبئ عن إيمان الكاتبة الفاضلة العميق بربها، وثقتها التامة بدينها، كما ينبئ عن حدة ذكائها، وجودة فهمها، فما أجدر مثقفاتنا بالاقتداء بها، فإذا بدا لواحدة منهن لأول وهلة من نصوص الدين ما يتعارض مع العقل أو المصلحة تمهلت وفكرت واستشارت العلماء والفقهاء، ولم تبادر إلى التكذيب أو الشك أو ظن السوء بدينها، وستجد بلا شك التفسير الصحيح الذي يتوافق مع العقل والعلم ويحقق المصلحة الحقيقية، ذلك أنه دين الله العليم الخبير الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فجزى الله الكاتبة الفاضلة خير الجزاء، وبارك فيها، ووفقها لكل خير.

الكعب العالي ليس جميلاً:

ونختم حديثنا الذي طال عن الكعب العالي بإلقاء سؤال فني: هل الكعب العالي جميل؟ وهو سؤال ينبغي لنا أن نتأمله، لأن هذا الكعب قد شاع شيوعًا عظيمًا، وأقل ما يمكن أن يقال فيه: إن الحذَّائين يرونه جميلاً، ويبرزون فنهم فيه، وإن نساء كثيرات يرين فيه سر الأناقة، فما سر هذا الوهم الجمالي بعد أن شخصنا أضراره المختلفة الكثيرة؟

ولسوف ندرك وشيكًا أن الجمال الموهوم في الكعب العالي ناشئ عن شيوعه وحسب، فهو لم يصبح جميلاً إلا لأنهم عوَّدوا العيون عليه، وكل شائع يصبح مقبولاً، وكأنه يخدّر العقل عن الحكم الصحيح.

وخير دليل على هذا أن أصحاب **الأزياء جعلوا ملابس النساء طويلة** توشك أن تلامس القدم عام ١٩٤٨؛ فأصبحنا كلنا نرى الجمال في تلك الملابس؛ حتى إذا عادوا وجعلوها قصيرة أصبح القِصَر يبدو مستساغًا؛ فالشيوع يسبغ الرضى على الأشياء المجردة من الجمال ذاتها؛[1] ومن هنا ينبغي أن نبدأ حكمنا على

(١) قلت: هذا أصل خطير من أصول الدعوات الباطلة تنبه عليه الكاتبة=

الأشياء الشائعة. إن علينا أن نحكِّم العقل في جمالية الأشياء دون أن نسمح لشيوعها أن يدمغ تفكيرنا، ويعطل قابلية الحكم فينا. ولا ينبغي للسيدة المثقفة المستنيرة أن تحكم بأن الكعب العالي جميل بعد أن بيَّنا لها عيوبه جميعًا؛ لأن عليها أن تتذكر أن

=الفاضلة، وهو شيوع عادة ما أو أمر ما أو عقيدة ما، فإن هذا الشيوع خدعة خبيثة زين بها الشيطان ويزين لكثير من الناس أنواعًا من الشرور والأباطيل والضلالات في مختلف المجالات، ففي مجال الاعتقاد مثلاً كان جريان عمل آباء المشركين وأجدادهم على عبادة الأصنام وتقديسها زمنًا طويلاً، وشيوع ذلك لدى العرب في الجاهلية كافيًا لإصرارهم على عبادتها، ورفضهم دعوة النبي ﷺ التي قامت عليها أدلة وبراهين ثابتة ثبوت الجبال، ويكفي منها معجزة القرآن الذي تحدى الله الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، ثم تنازل فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم تحداهم آخر الأمر أن يأتوا بسورة واحدة فعجزوا، فدل ذلك بجلاء تام على أنه من عند الله، ومع ذلك أصروا على رفضه وتكذيبه، لماذا؟ لا حجة لهم إلا أنهم وجدوا آباءهم يعبدون الأصنام مع أن عبادتها ظاهرة البطلان والسخف لبدائه العقول، ولا حاجة لنصب الأدلة على بطلانها، وصدق الله حيث قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فعلينا أن نعلم أن مقياس معرفة الحق إنما هو بما يدعمه من الأدلة والبراهين، وليس بكون أمر ما قديمًا أو جديدًا، ولا بكون متبعيه قلة أو كثرة، ولا بكون فلان وفلان مؤمنين به، ورحم الله الخليفة الراشد عليًا رضي الله عنه إذ قال: «لا يعرف الحق بالرجال، إنما يعرف الرجال بالحق، اعرف الحق تعرف أهله»، فتنبه.

الشيوع يشلُّ فكرها شللاً كاملاً، فلا بدّ لها إذا أرادت أن تحكم حكمًا سليمًا أن ترتفع فوق تخدير هذا الشيوع المضلل، وتتجرد من ضعف العقل أمامه.

خطر الأناقة على الاقتصاد العربي:

نعود لآن إلى مسألة الأناقة عامة بعد أن انشغلنا بمسألة الكعب العالي وهو قضية جزئية من قضايا الأناقة، درسنا وجوه استعبادها لذهن المرأة. ونريد الآن أن نتناول الجانب القومي من مسألة التأنق، وهو جانب خطير كل الخطر. وإني لأتساءل في بدء وقوفي عند هذا الجانب: كم من ملايين الدنانير تنفق نساء العالم العربي كل عام في شراء الثياب والأحذية والعطور والمساحيق؟

أحسبنا لو قدَّرنا ذلك بأربع مئة مليون دينار لما بالغنا، فلو أنزلت كل امرأة نفقات أناقتها إلى الربع لاستطعنا شراء طائرات تكفي لدحر عدونا الأكبر إسرائيل. وإني لأندهش أشد الدهشة كيف لا تفكر مجلات الأزياء عندنا بهذا! إننا نستورد مستلزمات الأناقة جميعًا من الغرب تقريبًا، فمن أقمشة إلى جلود للأحذية، إلى عطور ومساحيق، إلى عقود وأشرطة، وكل ذلك يكلف الدول العربية الملايين الكثيرة كل عام.

المرأة العربية وكثير من وسائل الإعلام العربي في خدمة معامل الأقمشة الأجنبية:

والذي يحدث لنا في هذا السبيل يلفت نظر أيٍّ ذهن متأمل لو أراد أن يتدبر. تقضي المرأة أشهرًا طويلة تعدّ ملابسها وملحقاتها حتىٰ إذا أكملت استعدادها تغيّر النمط فجأة، فإذا الملابس القصيرة تتحول إلىٰ طويلة في الموسم الجديد، وبذلك تضطر النساء إلىٰ التخلص من ثيابهن جميعًا. ولا يتغير الطول وحده عادة، وإنما يغيرون أسلوب الخياطة.وشكل الخصر.

أذكر من ذلك أنهم خطّوا لنا منذ سنوات أن تكون ملابسنا ملونة زاهية ذات طبعات كبيرة كل الكبر، فامتلأت الأسواق بهذه الملابس، وطبّلت لها المجلات حتىٰ أصبحت الفتاة التي تلبس ثوبًا بطبعات صغيرة تحس أنها سقيمة الذوق تخالف الشائع، ولذلك اشترت النساء جميعًا ملابس تجاري النمط العام. وفجأة في العام التالي غيروا الأنماط كلها دفعة واحدة، فجاؤوا بملابس جديدة طبعاتها صغيرة كل الصغر، رقيقة كل الرقة؛ وخياطتها فضفاضة كأكياس الدقيق[1] حتىٰ أصبحت من تلبس ثوبًا له خصر، وفيه ورود كبيرة تشعر أنها متخلفة لا ذوق

(١) كان اسم ذلك الزي المنكر (الشوال)!

لها؛ فكانت النتيجة أن الخزانات الملأى بالملابس الأنيقة أصبحت تبدو كالخاوية؛ فما فيها شيء يمكن أن يلبس؛ وعند هذا ذهبت العشرات والمئات من الدنانير إلى المزابل؛ واضطرت كل فتاة إلى إنفاق عشرات جديدة لشراء ملابس جديدة.

وهل نحتاج إلى أن ندرس نتائج هذا؟ إن معامل الأقمشة في الغرب المستعمر تضحك منا؛ وتستعملنا نحن النساء في ضرب الاقتصاد القومي في العالم العربي، ومعامل الأقمشة لا أخلاق لها، وآلاتها الرهيبة بلا قيم ولا إنسانية. إنها تريد أن تبيع وتبيع، وليس يهمها في سبيل ذلك أن تقتل روح الإنسان وتذل كرامته. وهذه المعامل الشريرة الجشعة هي التي تغير الأنماط كل عام، فتصنع دفاتر للنماذج جديدة، وهو ما يسمى بالموديلات التي تغمر أسواقنا مثل مجلة (بُرْده) اليهودية وسواها، وهذه المجلات تفتك بروح المرأة فتكًا ذريعًا، وتؤدي بنا إلى الخراب الاقتصادي الأكيد.

وقد دأبت المعامل على استعمال كل وسائل الإعلام في بث الدعاوة[1] لما تنتج، فهي تأتي بخبراء للملابس يخيطون الأقمشة

---

(١) هذا هو الصواب في مصدر فعل (دعا يدعو) ومن الخطأ الشائع قولهم (دعاية) لأن لام الفعل واو.

الجديدة في أنماط معينة، ثم تقيم معارض للأزياء، فتأتي بفتيات جميلات تلبسهن هذه الملابس، وتعرض أجسادهن على العيون كما كانت الجواري تعرض في سوق النخاسين. والمعامل تعطي جوائز على هذا العمل، وتبذل آلاف الدنانير في الإعلان وحشد الجمهور وإغرائه بشتى الطرق، وقد أصبحت أخيراً تغري الإذاعات المرئية بتصوير حفلات الأزياء هذه ونقلها، ليراها الملايين، وينتقل الفساد إلى داخل البيت العربي نفسه.

والغرض من ذلك إقناع النساء في العالم بأن الأزياء قد تغيرت، وأنماط الموسم الماضي قد ماتت، وحلت محلها أنماط جديدة، فعلى المرأة الأنيقة أن تسرع إلى الأسواق لتشتري لنفسها ملابس تتفق مع هذه الأزياء. وكل هذا قد أصبح يقع بسرعة؛ وكأنما أصابنا جنون، فلا تفكير لنا ولا شخصية.

العلاج:

١ ـ إحياء الحكومات العربية اللباس العربي الإسلامي الأصيل:

من كل هذا نرى كيف تعطل الأزياء اقتصادنا القومي في العالم العربي، فالقضاء على هذه البدعة مسؤولية الحكومات

التي قامت في ديارنا. وأول واجب يقع على هذه الحكومات أن تحافظ على روح اللباس الشعبي العربي بدلاً من أن نقلد في لباسنا الغرب بدعوى أن أزياءه عالمية.

ولكم أحترم الهند في أنها حافظت على لباسها، وصمدت في وجه الغرب صموداً رائعًا[١]. فالمرأة الهندية تلبس الساري الهندي الجميل الذي يلف كتفيها، ويهبط حتى قدميها؛ فيحفظ كرامتها القومية، ويصون عزتها النسوية.

إن ملابسها هندية وليست أوروبية؛ وهي تلبسها في وطنها وفي العالم كله، وهي لا تقدس أزياء الغرب، ومحلات الأزياء عندها بلا أية قيمة. فما أروعه مثلاً للمرأة العربية لو أرادت أن تنظر!

إن علينا أن نحيي ملابس جداتنا الطويلة التي تصون العفة، وتحفظ الجسم من الحر والبرد أجمل حفظ[٢]، وفي وسعنا أن نطور هذه الملابس بما يلائم العصر على أن نضع الأنماط في بلادنا

---

(١) قلت: وكذلك شأن الباكستان الشقيقة أيضًا.

(٢) أقول: وهي قبل ذلك كله تكسبنا رضوان الله عز وجل عنا، وهو أكبر لو كانوا يعلمون، كما تعد وسيلة فعالة للقضاء على الميوعة والفساد الخلقي.

دون أن نستوردها من الخارج. وهذا الإحياء لأزيائنا الشعبية لا يمكن أن يتم إن لم تتعاون عليه الحكومات العربية؛ لأن الزي الغربي قد تفشى في حياتنا شر تفشٍ، فالتغيير لا يمكن أن يقوم به الأفراد، وإنما هو وظيفة الحكومات.

٢ - منع استخدام وسائل الإعلام العربية للدعوة إلى الأزياء الغربية:

وفي مقابل هذا تمنع مجلات (بردة) وأمثالها من دخول العالم العربي، وتمنع المجلات والجرائد العربية من نشر أنباء (الميني جوب) كما يسمونها [وغيرها]، وما أكثر ما تقوم جرائدنا بالدعوة لهذه الأزياء وهي غافلة، ثم تعيد الحكومات العربية النظر في الإذاعات المرئية التي أفسدت الحياة العربية أيما إفساد، فإن مذيعات التلفزيون قد أصبحن شر نموذج للأناقة المصطنعة، تقلدهن تلميذات المدارس وربات البيوت في نمط شعرهن ولباسهن. وقد كان على الإذاعة المرئية أن تدرك أن المذيعة ينبغي أن تكون مثالاً للحشمة والوقار، وبساطة الشعر والملبس لتكون قدوة صالحة للمواطنة العربية العاملة التي يهمها عقلها وبيتها ووطنها، وتنفق وقتها في التعلم والتوجيه والخدمة.

فماذا نجد بدلاً من ذلك؟ نجد مذيعات لا همَّ لهن إلا أن يجلسن تحت مجفف الحلاق يوميًا، فالمذيعة تبدو كل يوم بتسريحة شعر جديدة: وما أقبح ما تبدو! إنها تخطئ في قواعد النحو خطأ شنيعًا مخجلاً غير أن شعرها مجعد ملفف منضد حتى تلوح أشبه بالقطة المنفوشة. وهذا مسلك لا يليق بإذاعة حكومية، المفروض فيها توجيه المواطنين إلى الصلاح والسداد.

٣ - إصلاح وضع المرأة وإدراجه ضمن مخططات الإصلاح:

والواقع الذي لا مفر لنا من مواجهته أن الحكومات العربية لا تدرج إصلاح المرأة ضمن مخططاتها السياسية والثقافية، فكأن العامل هو الرجل وحده، أما المرأة فإن وظيفتها أن تخيط الملابس، وتجعد شعرها، وتطيل أظفارها، وتلبس الكعوب العالية. نعم نحن نعترف بأن [دعوات الإصلاح] لم تفرق نظريًا بين الرجل والمرأة، بل دعتهما كليهما إلى العمل والبناء.

إن قوانينا تساوي المرأة بالرجل، وتتحدث في إخلاص عن تكوين الفرد العربي رجلاً كان أو امرأة بالرجل، وتتحدث في إخلاص عن تكوين الفرد العربي رجلاً كان أو امرأة بحيث يعمل في بناء الأمة العربية، وإنقاذها من الاستعمار والتخلف والتمزق، وهي في هذا الحديث تعتبر المرأة فردًا عاملاً في

المجتمع، عليها ما على الرجل، وكل هذا مقبول، وإنما نعترض على أنه نظري وحسب، فإن وضع المرأة الحالي لا يعطيها من الفرص أكثر من أن تذهب إلى الحلاق وتتغنج: وتحاول الإغراء على كل أسلوب.

ثم غزتنا الملابس القصيرة، وكنا نأمل أن تردعنا عنها تقاليدنا الكريمة، وحرمة الشرف عندنا، فإذا المرأة تنهار أمام الغزو الفاضح، ولا لوم عليها إذا هي انهارت[1]، فلست أرى الصحافة والإذاعات إلا مشجعة جميعًا هذا الانهيار، لا بل إن الحكومات العربية نفسها تشتري مجلات الأزياء وتملأ بها أسواقنا. وهل المرأة مَلَك سماوي، لتقاوم كل هذا السيل من الإغراء والدعوة؟

إن هناك تخطيطًا عامًا في مجتمعنا يرسم للمرأة أن تنهار أمام الغزو المادي الغربي. ولو أرادت الحكومات العربية أن تخطط تخطيطًا آخر لاستطاعت، وذلك بأن تمنع مجلات الأزياء الغربية منعًا صارمًا، وتقيم معامل للأقمشة عربية، وتحيي أزياءنا

(١) قلت: بل عليها بعض اللوم حيث استجابت لكل ما يعرض عليها دون نظر أو تفكير.

الشعبية(١)، وتستعمل وسائل الإعلام في تشجيع المواطنة العربية على تقليل نفقات زينتها، والتبرع بها للمجهود الحربي، وللآلاف المؤلفة من اللاجئين العراة. إن كل هذا حري أن يتم لو شاءت الحكومات العربية أن يتم. ولا بد لذلك من تخطيط جديد يعطي للقضايا الاجتماعية قيمتها الكبرى في الخطط السياسية العامة.

اليهود وراء مغريات النساء وهم المستفيدون من سيرنا في طريق الأناقة:

وإني لأحب أن ألفت النظر في هذا الباب إلى نقطة جوهرية في مسألة الأزياء التي نستوردها، هي أن أغلب معامل الأقمشة ومصانع العطورات والمساحيق إنما يملكها اليهود في الغرب. واليهود كما ثبت في هذا العصر يسعون إلى أن يسيطروا على العالم، ويحكموه بعد القضاء على الحكومات العالمية جميعًا. وأسلوبهم في السيطرة ذو شقين، **أولهما:** الاستيلاء على المال في

(١) قلت: الزي الواجب على المرأة العربية المسلمة لبسه هو الجلباب الشرعي السابغ الساتر الذي أمرها الله تعالى به، ولبسه نساء سلفنا الصالح الذين فتحوا الدنيا ونشروا فيها الحق والهدى والخير، وانظر لتعرف صفاته وشروطه كتاب جلباب المرأة المسلمة لأستاذنا العلامة محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله تعالى.

كل بلد ينزلـونه، وهذا قد تحقق لـهم حيثما وجدوا، لأنهم قـوم يقيمون تعاملهم على ابتزاز الأموال بوسائل غير مستقيمة مثل الربا (*) وثانيهما: هدم الأخـلاق والمثل والقـيم والمعتـقـدات، واليـهود يعلمـون حق العلم أنهم إذا هدموا الأخـلاق تهـدمت الشعوب، وانهارت أمامهم. قال الشاعر العربي[١]:

وإنما الأمم الأخــلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

اليهود هم مبتكرو الملابس القصيرة لإفساد المجتمع العربي:

ومن هنا نـصل إلى النقطة الجـوهرية في بـحثنا، فـقـد عـمل اليـهود على السيطرة على معامل الملابس، والمساحيق والعطور وسـواها من مستلزمـات المودة (**). وهم بذلك يتـوصلون إلى تحـقـيق الغـرضين، فـيسـيطرون على المال، ويفـسـدون الدين والأخلاق.

(*) راجع كتاب «اليهودي العالمي» جمع هنري فورد.

(**) يراجع في هذا كتـاب عبـدالله التل «خطر اليهـود العـالمية على الإسـلام والمسيحية».

(١) هو أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله، والبيت من درر حكمه، وله في معناه: **وليــس بعامرٍ بنيان قومٍ   إذا أخلاقهم كانت يبابا**

ويقول أيضًا:

وإذ أصيب القوم في أخلاقهم   فأقم عليهم مأتمـًا وعـويــلاً

إنهم يعملون على بيع أكبر مقدار ممكن من الملابس ومنتجات الأزياء إلى نساء العالم، فكلما غيروا الأنماط زادوا النساء شراء وإنفاقًا، وتسربت الأموال إلى جيوب اليهود وهم يحققون أيضًا قتل الأخلاق القومية للشعوب، فيشيعون التفسخ وينشرون الشهوات. وإنما الملابس القصيرة ابتكار يهودي، فقد رفعوا أزياء النساء فوق الركبة، ليزول الحياء وتنتشر الرذيلة، ويشيع الاختلاط غير البريء، بين الشبان الشابات[1]، وتضيع طهارة الفتاة، وتتهدم الأسرة، وتنتشر الأمراض الجنسية، ويبتلى الأطفال الأبرياء، وينشأ جيل ضائع موبوء مريض، كل هذا يصنعه اليهود ونحن

---

(١) قلت: وآخر خطوة في ذلك ما نسمعه بين الحين والآخر عن بعض المسؤولين في وزارات التربية والإعلام في بعض البلاد العربية، من الدعوة للتعليم المختلط في مراحل التعليم المختلفة! وكأنه لم تقنعهم تجارب الأمم الأخرى التي أظهرت بوضوح إخفاق هذا النوع من التعليم، وعظم جنايته على العقائد والأخلاق، والمجتمع والوطن؛ ومقدار ما يؤدي إليه من الانحلال والميوعة والفساد والفضائح، ولا أجد تفسيراً مقبولاً لدعوتهم هذه إلا أنهم إحدى فئتين: مغفلون مخدوعون، وأغبياء جاهلون، أو عملاء مأجورون، وخبثاء ماكرون؛ يعملون لحساب الصهيونية والاستعمار، وينفذون مخططاتهم بأمانة وإخلاص، ولا يمكن لأي إنسان يحب وطنه ويحرص على رفعة أمته أن يدعو إلى هذه الفكرة أبدا، اللهم إلا أن يكون إنسانًا همه شهواته، وملذاته المحرمة بأي سبيل، دون أن يرعى لأمته عهداً، أو يحفظ لوطنه مصلحة!

غافلون. والمرأة العربية تسعى إلى حتفها وحتف أمتها، فهل آن لها أن تعرف هذا وتفيق من أحلامها؟

نداء إلى المرأة العربية:

وفي ختام هذه المحاضرة أود أن أتوجه بنداء إلى المرأة العربية عامة، أن تدرك قيمتها ومكانها في الوجود والحياة، وتضع لنفسها فلسفة جديدة ترفع شأنها، وتعطي القيمة الأولى لذهنها وروحها[1]. ولتعلم المرأة أن اللباس عَرَض خارجي أصله الستر ودفع الحر والبرد[2]، وإنما الإنسان بعقله وحديثه وعمله

---

(١) قلت: لقد كفاها الله سبحانه هذه المؤنة ووفر عليها ذاك الجهد، ففي الإسلام الذي أنزله الله إلينا بواسطة نبيه ﷺ أعظم عقيدة وأصوب فلسفة للحياة جميعًا بكل جوانبها بشكل عام، ولحياة المرأة بشكل خاص، ولو رجعنا إلى ما ورد في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة من التوجيه والتنظيم لوجدنا أنه يفي بكل ما نطلبه من أجل الإصلاح العام الكامل الصحيح، فما علينا إلا أن ندرسه ونفهم ثم نطبقه وننفذه.

(٢) قلت: ومن الإنصاف أن أقول: إن من أغراضه أيضًا الزينة، وقد أشار إلى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، ولكن بشرط عدم المبالغة والإسراف، فإن الله لا يحب المسرفين، وألا تبدى هذه الزينة لمن لا يحل إبداؤها أمامهم: وألا تكون على حساب الواجبات والمندوبات الدينية والوطنية الأخرى: كما وضحت ذلك الكاتبة الفاضلة فيما سبق.

وخلقه لا بملبسه وحذائه. ومن الإجحاف بمكانة المرأة ومواهبها العظيمة أن تقيم حياتها على مجرد إرضاء الغريزة وتسلية الرجل، فهي أرفع من ذلك؛ وقد أعطاها الله من أصالة الذهن وقوة الروح، وإبداع المواهب ما جعل من النساء في الوجود مبدعات في العلم والاختراع، والفكر والأدب والفن جميعًا، وقد ساهمت النساء في فروع المعرفة، فلا ينبغي للمرأة العربية أن تتخلف وتركن إلى غريزتها وعواطفها بأضيق المعاني.

مسؤولية الرجل في توجيه المرأة:

وإني لأومن إيمانًا كاملاً بدور الرجل في توجيه المرأة، فإذا كانت فتاتنا العربية متخلفة، تعيش بغرائزها دون عقلها، وتحيا للأزياء لا للحقيقة فإنما الرجل مسؤول عن ذلك كله. وإنما تتزين المرأة للرجل، فلو كانت كل فتاة تجد رجلاً تعزه، ويلومها على تبرجها، ويعلن ازدراءه له لتركت المرأة التبرج تركًا تامًا.

والواقع أن الرجل عندنا متخلف كالمرأة، وهو ما زال يحب الفتاة الضعيفة الذهن المثقلة بالزينة المصطنعة التي تلبس له التحتية القصيرة، وتجعد شعرها عند الحلاق. فكل ما ذكرنا في هذه المحاضرة من وجوه التأنق والتبرج تعود أسبابه إلى المرأة والرجل

معًا، والمجتمع كل مسؤول[١]، ومن ثم فإن الأناقة المسرفة التي تتصف بها المرأة العربية اليوم ذات دلالة اجتماعية أكيدة على وضعنا كله، ولن يتغير هذا الوضع بمجرد محاضرة تلقى في جامعة البصرة، وإنما سيتغير إذا سمعت الحكومات العربية ما نقول، واتخذت تخطيطًا عامًا له فلسفة أخلاقية دينية[٢]، وهدفه المحافظة على أصالة الأمة العربية، وحفظ كرامة المرأة، ورفع الاقتصاد القومي؛ ومن ثم بنتيجة هذا كله ضرب إسرائيل.

نازك الملائكة

(١) قلت: بنفسي رسول الله ﷺ ما أصدقه! وما أحكمه حين قال - فيما صح عنه -: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام (أي الحاكم) راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده. وهو مسؤول عن رعيته، وكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته» رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) قلت: من الحكم القرآنية العظيمة في بيان سنة الله تعالى في تغيير أحوال المجتمعات قوله سبحانه: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

وفي ختام هذه الرسالة أقدم إلى القراء الكرام مقتطفات من كلمة كان كتبها الأستاذ نزار المؤيد العظم منذ نحو خمسة عشر عامًا[١] ونشرت بعنوان:

لقد جعلت المرأة نفسها دمية!
متى ترجع إلى مهمتها
في صنع الأجيال؟

قال: «وتصرفات فتاة اليوم ومظهرها، وكل شيء في وجودها يؤكد أنها (دمية)! دمية رغم كل شيء، ودمية رغم الثقافة التي نالت نصيبًا منها، والحرية التي منحتها، وثورة الكرامة التي ادعتها..».

ثم خاطب الكاتب ممثلة الفتيات المتحررات والمدافعة عنهن فقال:

«ورجاء. دلّينا على واحدة من هؤلاء المتحررات ارتفعت بسلوكها ومظهرها وملبسها وتفكيرها إلى مستوى ما فوق الدمية! وأنكري إذا استطعت أن نسبة ازدياد عدد صالونات

(١) أي نحو سنة ١٣٧٥هـ الموافق لعام ١٩٥٥م تقريبًا.

الحلاقة للسيدات قد ارتفع مع ازدياد عدد المتحررات في هذا البلد!

وتأملي كيف تسترخي المرأة على المقعد الوثير، وتسلم رأسها لأصابع الحلاق وتستسلم لعبودية (موضات) التسريحات التي تتبدل وتتغير كل يوم، وكيف تغادر الصالون بعد ذلك، فإذا بشعرها تبدلت طبيعته، وفقد نعومته ولمعانه وجماله واسترساله كالشلال على الكتفين، وغدا منفوشًا تارة، ومقعراً أو مقببًا تارة أخرى!

وتفضل فانظري إلى مظهر المتحررات في الشوارع، إلى ثيابهن التي قصرت وقصرت، وضاقت ثم ضاقت، وانكمشت ثم انكمشت حتى باتت تُظهر دقائق الجسد ونتوءاته وتقعراته، وتكشف برخص عما يجب ستره!

وقفي هنيهة أمام موقف (الباصات) لتري أخواتك المتحررات، وهن يصعدن إلى السيارة، بل وانظري إليهن وهن يصعدن درجًا أو يجلسن على أريكة ويضعن رجلاً فقول رجل!

ثم اسألي نفسك: ما الغاية من إقبالهن على صالونات

الحلاقة؟ وما الغاية من تقصير الثوب لما فوق الركبة؟ بل وما الغاية من حذف الأكمام من الأكتاف والصدر والظهر: ألشدة الحر[1]؟

(١) قلت: من أغرب الظواهر التي تلفت النظر، ولا ينقضي منها العجب منظر أولئك النسوة اللاتي يخرجن في أيام الشتاء القارسة؛ في الطرقات متسكعات متهاديات كاشفات عاريات؛ باديات السوق والأعناق، يتحملن لسعة البرد ووخز الرياح والثلوج، في الوقت الذي نشعر فيه نحن الرجال بالقشعريرة والبرد مع ارتدائنا المعاطف السميكة وتلففنا بالألبسة الكثيرة، ترى من أجل ماذا يفعلن هذا؟ وهل لذلك سبب إلا لفت نظر الرجال وإثارتهم، والاستجابة لنداء إبليس الذي أخبرنا عنه ربنا سبحانه وتعالى في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف ٢٠].

وهل لذلك من تفسير إلا قصد إفساد أخلاق هذه الأمة، وتبديد طاقاتها ونشر الميوعة والرذيلة فيها، قصدن ذلك أو لم يقصدنه؛ شعرن به أو لم يشعرن، لينشأ الشباب ضعيفًا متخاذلاً رخوًا خوارًا متعلقًا بالدنيا وشهواتها لا يهتم بدين أو عرض، ولا يبالي بأمة أو وطن؟ وبذلك يسهل على العدو اقتحام البلاد وتنفيذ أغراضه الخبيثة، لأن السور القوي الذي يحمي الحمى قد هدمه بعض أبنائه وبناته، ترى ألا يمكن أن يكون اليهود والمستعمرون هم الذين يستأجرون كثيرات من هؤلاء وممن يدفعهن إلى هذا السلوك الآثم من أجل تحقيق غرضهم الخطير هذا؟ إنني على ثقة من أنه لو جرى تحقيق جدي ونزيه حول هذا الموضوع لأثبت هذه الصلة بوضوح، ولأفاد أي إفادة، ولربما أتى بالعجب العجاب!!! وقد مضت الإشارة إلى ذلك في ص ٢٢ من مقدمتي لهذه الرسالة.

ألغلاء سعر القماش[١]؟ ألرغبة في التوفير[٢]؟ أمن من أجل الأناقة؟ أم لترضي المرأة غريزة الإغراء، ولتجذب العيون النهمة كي تزحف فتتسلق، لتؤكد أنها لم تخرج عن كونها (دمية).

وفي ذلك ابتعاد كبير عن المستوى الإنساني، ومسخ أي مسخ لمفهوم الحرية، وتشويه فاضح لمعركة إثبات الوجود والذود عن الكرامة.

ويدعي هؤلاء أنهن يردن أن يحملن المسؤولية ويتحررن من القيود، ولكن التحرر الخاطىء الذي يمارسنه أفقدهن الشعور بالمسؤولية، وابتلاهن باللامبالاة والاستهتار، وجعلهن يهملن كل ما يتعلق بوظيفتهن الحقيقية في الحياة. تلك الوظيفة التي أرادها الله للمرأة كربة للبيت، وكزوجة لرجل ينشد الراحة والنظام والترتيب في دار، وكأم تهب وجودها وثقافتها وخبراتها لتنشئة أطفالها وإعدادهم للحياة الفاعلة الشريفة.

وأسأل: هذه الفتاة المتحررة التي لا همَّ لها إلا تصفح مجلات الأزياء وتطويل أظافرها، وصبغها بالأحمر والوردي،

---

(١) قلت: الملاحظ أن عامة المتحررات من الطبقة المترفة الغنية أو المتوسطة التي لا تشكو قلة في المال.

(٢) قلت: من المعروف أنهن يصرفن المال الكثير في التوافه والكماليات ووسائل الزينة وفي سبيل الأناقة.

وارتياد صالون الحلاقة يوميًا، ومنها إلىٰ دور الخياطة، ومن ثم إلىٰ السينما والفسحات والزيارات والاجتماعات في الندوات والمجالس: ما الذي تركته من وقتها للبيت، للطبخ، لترتيب الأثاث، للعناية براحة الرجل حين يعود منهكًا من عمله، لرعاية أولادها؟

أتترك ذلك كله للخادمات، للمربيات؟ أوَكل إنسان قادر علىٰ أن يتحمل نفقات أولئك الخادمات والمربيات(١)؟ ثم هل يجوز أن يوكل أمر البيت برمته للخادمات الجاهلات(٢)؟ أهكذا

---

(١) قلت: وأين هن هؤلاء الخادمات، إنك ستحتاج لتحصل علىٰ واحدة منهن إلىٰ بحث وتنقيب أشهراً كثيرة، وربما ترجع بعد ذلك بخفي حنين!!

(٢) قلت: وبعض النساء ليس لديهن خادمات فيتركن أولادهن في البيوت ويغلقن عليهم الأبواب، وينصرفن لفسحاتهن وأناقتهن، وما أكثر الحوادث السيئة والمؤسفة التي تحدث لهؤلاء الأولاد، هذا بالإضافة إلىٰ حرمانهم عطف الأمهات وحنانهن وتوجيههن، ومن كان من هؤلاء الأولاد كبيراً خلا له المجال لكي ينزلق في تيار الرذيلة والفساد والجريمة، وينساق مع رفاق السوء، وغدا يتبع هواه الطائش وتسوقه غرائزه المستعرة دون توجيه أو تصعيد، أو تهذيب أو تلطيف، فينشأ نيتجة لذلك أسوأ جيل تتجلىٰ فيه الميوعة والانحراف والطيش والشذوذ، وعدم الجد في الحياة أو الاهتمام بالعلم، وأنا بحكم عملي في التدريس والتربية، ألمس ذلك بوضوح، فقد غدت هذه المهنة لهذا السبب ولغيره سيئة للغاية، وأضحت جحيمًا لا يطاق، وأضحىٰ المدرس يعيش علىٰ أعصابه كما يقال، وسل أي مرب ليأتيك بالخبر اليقين!

يكون التـحـرر؟ أهكذا تـكون مـشـاطرة المرأة للرجل فـي تحـمل المسؤوليات وأعباء الحياة؟» .

ثم انتـقل الأستـاذ الكاتب إلى ناحيـة أخرى من الموضـوع فقال :

«وللمرأة العذر في ألا تغفر الخطيئة المذكرة، ولكن هل يبرر وجودها وجود خطيئة مؤنثة بالمقابل؟ ولا أنكر أن الخطيئة المذكرة فحشاء تمنعها الأديان، وتمقتها الأخلاق والفضيلة، ولكن هذه الخطيئة على فحشها لا تترك في كيان الرجل ما تخلفه في كيان المرأة، ولا تحرقه بقدر ما تحرق المرأة، ومعظم المجتمعات تحكم على المرأة بقانون أشد وأقسى من القانون الذي تحكم به على الرجال» .

ثم تطرق الكاتب إلى دعوى مدعيات التحرر أنهن يرفضن أن يكون لهن تسعيرة للزواج، كما كان لأمهاتهن وجداتهن، وأن يبعن أنفسهن لقاء ثمن لا يقل عن طابق وسيارة وخادمتين . . . فقال مخاطبًا إحداهن :

«إن هذا الكلام جميل لو كان له نصيب من الصحة في واقع المرأة الشرقية، ودليني على عشر فتيات متحررات في هذا البلد

كفرْن بالتسعيرة، وفهمن الزواج على أنه مشاركة وتعاون، وليس صفقة رابحة تحدد لها الشروط وتسبقها مساومات ومزايدات؟

دلينا على عشر فتيات من المتحررات يرضين بالرجل من أجل رجولته ونبل أخلاقه، وسمو آماله وسعة طموحه، تذهب إحداهن إلى القاضي الشرعي ليعقد قرانه عليها[1] لقاء خاتم ولو من حديد! ترضى بأن تعيش معه عيشة بسيطة حسب قدرته كما تفعل الفتاة التي تقدر مهمتها في الحياة، ولو كان ذلك كذلك لما عانى الشباب داء العزوبة، ولما عانت الفتاة داء العنوسة، ولأفلس كثيرون من الصاغة وباعة المجوهرات، ولسُدَّ كثير من سبل الرذيلة والمجون، والمزالق الخطرة التي يؤدي إليها الكبت عند الجنسين».

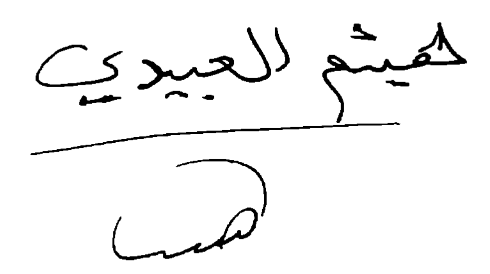
ثم أنهى الكاتب كلمته مخاطباً ممثلة المتحررات: «اطلبي من المتحررات أن يعدن إلى ذواتهن، فينتزعن الشعور بالدونية، ويحطمن التمثال اللعبة ويصعِّدن غريزة الإغراء لما فيه إنقاذ كرامتهن، وفرض احترامهن، وليفهمن أن الحرية إنما هي حرية العقل وتحرره من السفاسف والتفاهات والقشور،

---

(١) قلت: لابد مع ذلك من موافقة وليها وحضور شاهدين عدلين.

وليدركن أن مسؤوليتهن في الحياة أخطر وأعظم من مسؤولية الرجال[١]، وأن فعالية المرأة تقاس بمقدار العطاء الذي تهبه من وجودها لتصنع الأجيال الصاعدة».

*****



(١) قلت: لقد بين الإسلام مرتبة المرأة ومسؤوليتها أوضح بيان في قوله ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال» رواه الدارمي وغيره، وإسناده صحيح.، وغير ذلك من الآيات والأحاديث كثيرة مشهورة كما بين ذلك السيرة العملية للنبي ﷺ وأصحابه وأهل القرون الفاضلة الثلاثة.

الفهرس

*****

وقد ألحقت بهذا الكتاب مقالات مهمة للشاعرة نازك الملائكة ،

بعنوان (محاذير في ترجمة الفكر الغربي)
نشرت في مجلة الآداب العدد الرابع سنة 1966

وقد ألحقناها بهذا الكتاب لأهميتها

والله الموفق

تصوير وإعداد

هيثم العبيدي



في هذا العدد

ابحاث

قصائد

قصص

العدد الرابع
نيسان (ابريل)



محاذير في ترجمة الفكر الغربي

بقلم نازك الملائكة

الترجمة ، من وجهة النظر الاجتماعية ، ضرب من الصلة بين مجتمع ومجتمع ، تتيح للمترجم فرصة يحتك فيها ذهنه بذهن اجنبي له ظروف يختلف بها عن الذهن الاول . وكلما كان الفارق بين الظروف اكبر كانت المادة المترجمة اشد اثارة واعمق اثرا في اذهان القراء وارواحهم . ومن شان الامم المتحضرة ان تلتمس المعرفة وسعة الفكر ، فهي تقبل على قراءة آداب الامم الاخرى وفلسفاتها ، ملتمسة فيها وجهة نظر جديدة تستعين بها على حياتها ، ووسائل تعبيرية توسع آفاق لغتها وفكرها .

وقد كان من مظاهر الانبعاثة العظيمة التي انتفضت بها الامة العربية في هذا القرن ، اننا اقبلنا على الترجمة سواء أمن الغرب ام من الشرق من آداب الهند والصين وحكمتهم . علما ان الغالب علينا اليوم هو النقل عن الغرب بحيث باتت المترجمات الاوربية والامبركية تغرق مكتباتنا واسواقنا ، وما زال هذا التيار يشتد ويتلاطم حتى بات علينا ان نتامله ونرقبه .

واول ما نحب ان نقول ان حماستنا في ترجمة الفكر الغربي امر لا تنقصه المبررات : ان الغرب الذي سبقنا الى التطور الحديث قد خاض قبلنا في كثير من القضايا الفكرية الجديدة والمسائل الاجتماعية المعاصرة وغيرها مما نتعرض الى ان نخوضه في بلادنا ، ولذلك نستطيع ان نفيد من تجاربه في مجابهة بعض قضايانا المشكلة . غير ان في موقفنا من هذه الترجمة محذورين خطيرين قد نقع فيهما ان لم ننتبه .

(اولهما) ان بعض المترجمين يتخذون مما يترجمونه موقفا ضعيفا فيه هوان واستخذاء ، فيفترضون في قرارتهم ان الامة التي تحتاج الى الترجمة ، هي بالضرورة اضعف شخصية وفكرا من الامة التي تترجم عنها فكانما الحاجة الى الترجمة قرينة النقص الفكري وضحالة المعرفة . ولا يخفى ان هذا موقف مغلوط يسيء الى اية ترجمة تنقل الى لغتنا ، لاننا ندرك ان الامم تتباين في التفكير والتعبير ، وتختلف في الاتجاه والمعتقد ، ومن ثم فان قراءة آداب الامم الاخرى تلمس اذهاننا لمسة الايحاء ، وتشق لنا دروبا جديدة من المعاني . ولا تظن الامة التي ينقصها الفكر المحلي الناضج تنتفع بالترجمات ، وانما تقع في التقليد والنسخ والمحاكاة فيمسخ ذلك شخصيتها ويضيع مكانتها .

وقد يكون من المفيد ، في مداواة هذا الاحساس ، ان نتذكر ان الغرب الذي يعطينا فكره انما رد الينا اليوم بعض ديونه القديمة المتراكمة . فكم قد اخذ في غابر القرون عن ابن سينا وابن الهيثم وابن رشد ، والغزالي والمعري وابن خلدون وسواهم من اعلام الفكر العربي . ثم ان حاجتنا العربية المعاصرة الى دراسة الفكر الغربي لا تكاد تقل عن حاجتنا الى دراسة الفكر العربي ، فانما نحن متاخرون لاننا هبطنا عن مستوانا العربي نفسه . وان المرء ليحزن حين يدرس تاريخ الفكر العربي والمستويات الثقافية العالية التي بلغها ، ويقارنها بما نحن عليه اليوم من خمول وضحالة .

والمحذور (الثاني) ان اعجابنا الشديد بالفكر الغربي قد يشل قدرتنا على تمييز ما ينفعنا مما يضرنا . فنترجم كل ما يكتبون ونتخذ من المواقف والفلسفات ما يتخذون بمعزل عن حاجتنا وظروفنا . ومنشا هذا المحذور انبهارنا بمدنية الغرب الالية ، لمما نكاد نتامل صواريخه واقماره وكشوفه العلمية الجبارة حتى نتخيل ان اخلاقه تـوازي علومه ، وان مبادئه لا تقل روعة عن مستواه العلمي ، وان شخصيته ارفع من شخصيتنا ، ولذلك ينبغي لنا ان ناخذ بكل ما يقول ويعمل.

ولقد سادت في بعض اوساطنا المبهورة بالغرب فكرة مضمونها ان كون الامة العربية تعيش عصرا واحدا مع الغرب يجعل من الممكن والمعقول ان نكتب باساليبهم ونعتنق آراءهم ونستعمل احكامهم الادبية في نقد آثارنا . وهذه النظرة على ما فيها من جانب مصيب ، تتجاهل ان لكل امة شخصية وطبيعة واسلوبا ، وان مرجع ذلك الى تواريخ سحيقة في القدم عاشتها الامم وتكون خلالها ارثها من الدم والروح واللغة .

ان هذه الحقيقة تتحكم فيما ينبغي ان يكون عليه موقفنا من الفكر الغربي المترجم . فكل فرق في الشخصية والتاريخ بيننا وبين الغرب ينتج الزاما بالحذر من ان يجرفنا الفكر الذي ينتجه . ولسوف ندرس فيما يلي هذه الفوارق القائمة بيننا وبين الغرب ، وهي –كما سنرى – تحد استفادتنا من انتاجه وقد تجعله مضرا بنا اشد الاضرار احيانا .

١ – فارق الاتجاه الحضاري

كان الشعب العربي ، منذ اقدم العصور يمثل اتجاها حضاريا يختلف عن اتجاه الغرب . ولعل الوصف الصادق لنفسيتنا هو « الروحانية والتامل والخشوع » بينما يتصف الغربي عموما « بالمادية والحسية» . وفي وسعنا ان نلاحظ هذا الاتجاه الغربي منذ بداية التاريخ المعروفة . فاليونانيون القدماء مثلا ، في عهد هوميروس ،كانوا لا يشغلون بالهم بالاخلاق وانما يعيشون الحياة دون تحفظ او تقيد . يدل على ذلك انهم ابتدعوا لانفسهم آلهة ترتكب الشر والخير معا ولا تعرف بينهما فرقا او – على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي جان ماري كويو في كتاب له (١) : ان الطبيعة لا ترى في الخير والشر تضاربا ولا تعارضا ، وانما هما عندها ، مثل الحرارة والبرودة ، كلاهما درجة في المحرار الاخلاقي ، وكلاهما ضروري لان الواحد منهما يوازن الثاني في الخليقة » . وانما كان الاغريق يقدسون الحياة كلها ، فكل ما فيها يرتفع عندهم الى مرتبة الالوهة سواء أكان خيرا ام شرا ، كما يقول نيتشه . (٢) ويتضح هذا المعنى في ما نراه لهم من صور وتماثيل تشير الى تقديس الجسد والانطلاق من قيود الاخلاق .

ولو درسنا الفلسفات الاوربية الحديثة لوجدنا اغلبها مشوبا بلمسة الاتجاه المادي ، ونشاهد اثر ذلك حتى لدى الفلاسفة المتدينين مثل القديس اوغسطين ، فلعل اي قارىء لاعترافاته يلاحظ المسحة الحسية العنيفة في حبه لله واثر العاطفة الارضية في مناجاته له ،فهو يصف الله بانه زوج الانسانية . وتعبر الفقرة التالية عن مجمل شكل هذا الحب الذي يكنه اوغسطين للخالق : « حين احب الله فانا انما احب الضياء والنغم والعطر والطعام والعناق . وانه لضياء لا يمكن ان يسلبني اياه زمان ، وعطر لا تستطيع رياح ان تبدده ، وطعام لا ينقص مهما اكلت منه وعناق ارقد فيه فلا يوقظني منه ارتواء . ذلك ما احب

---

(١) ترجمة شخصية من كتاب غويو A sketch of Morality Indipendet of Obligation or Sanction وهو مترجم ترجمة رائعة الى العربية بقلم الاستاذ سامي الدروبي ويؤسفني الا تكون ترجمته بين يدي الان .

(٢) كتاب نيتشه الممتع The Birth of the Tragedy From the Spirit of Music وهو فيما اعلم غير مترجم الى اللغة العربية

حين احب الله » (١) .

كل هذا يشير الى موقف حسي من الذات الالهيــة يخالــف موقفنا في الوطن العربي حيث نعتقد الا شيء يقربنا من الله مثــل التأمل الخالص المنزه عن تأثيرات الحواس . اننا نلمح الزهد والحكمة والتأمل حتى في شعر العرب الذين مجدوا الخمر وعالم الحــواس مثل طرفة بن العبد . وما يلبث اللاهون المعنون في المجون حتى يتوبوا تنحدر دموع الندم على خدود كهولتهم مثل ابي نواس .. فكانمـــا النفس العربية بطبعها متأملة خاشعة فما تكاد تنطلق حتى تعاودها نزعتها الفطرية . ومع ان الصوفيين في الادب العربي لا يمتنعون عن منــاداة الله بالنجوى الحسية ، غير أن كل حسية لديهم انما هي رمز لمعنى روحاني . فهم يتحدثون ـ كما يقول ابن الفارض ـ عــن « معنــى وراء الحسن » (٢) ونحن نعلم من مطلع التائية الكبرى ان الحبيبة التي ترمز الى الله ذات محيا « يجل عن الحسن » . والعقيدة العامة لدى العربي ان الحواس بنهمها وضجيجها ، تشغل الذهن عن الارتقاء ، ولا يتم ادراك الله تعالى من دون ارتقاء . ولسنا وحدنا في هذه النزعة فان الشرق كله يكاد يشاركنا اياها . وكل من يلم بفلسفة «يوغا» في «الباغافادغيتا» Bagavad-Gita الهندية يدرك انها تنتهي الى مثل ذلــك لا بل انها تزيد عليه زيادات قاسية من الرياضة الروحية تهدف كلهـــا الى تطهير النفس من سطوة الحواس .

ولعله ثابت ان الفرد العربي ، مهما قل نصيبه من العلم والثقافة ، يمتلك في اعماقه حسا صوفيا يمنحه خشوعا دائما امام الله والحياة والغيب . ومن مظاهر ذلك ايمانه بالرؤيا وتأويلها ، وبالدعــاء وآثاره ، وبعالم الروح وخلود الموتى . كما يتميز العربي بانه يذكر الله في حياته اليومية كثيرا . وقد تركت النزعة الروحية آثارها في تاريخنا قديمـا وحديثا ، وهو امر لا نكاد نجد له مثيلا في كتب الغرب .

بعد هذا العرض العاجل للروحية العربية والمادية الغربية يصبح واضحا ان ترجمة الفكر الغربي الى لغتنا ينبغي ان تتم في كثير مــن التحفظ ، لا لاننا نخشى ا ن تهدم طبيعتنا ، فان طبائع الامم لا تهــدم قط ، وانما لان انبهارنا بمدنية الغرب يستطيع ان يجعلنا نتيه فنتمرد على طبيعتنا كما يتمرد صبي غر ، وبذلك نضيع فترة من الزمن حتــى نرجع الى انفسنا . ولسوف نكتشف يوما بعد يوم ان طبيعتنا هي ضمان ابداعنا لمجرد انها طبيعتنا والمرء لا يبدع الا في حدود طبيعته . هكذا ابدع العرب بالامس ، وهكذا تبدع اوربا اليوم . ونحن ، في الوطــن العربي نحتاج اليوم الى كل لحظة من حياتنا ، فلا ينبغي ان نبدد شيئا في الضياع والتيه .

٢ ـ فارق الموقف الاجتماعي

تبدو لنا محاذير الاندفاع في ترجمة الفكر الغربي الى اللغــة العربية اشد واخطر حين ندرس الفرق الظاهر بين الموقف الاجتماعي الذي تقفه الامة العربية والاخر الذي يقفه الغرب . وينشأ ذلك الفرق بدءا عن أن الغرب يقف في نقطة من تاريخه الفكري والحضاري تختلف عن النقطة التي نقف فيها نحن اختلافا ملحوظا . فقد بلغ الغرب مرحلة النضج الحضاري منذ قرون ، وعرف هذه المدنية الحديثة معرفة مباشرة ، وعاش مراحلها النامية عيشة متدرجة على مدى مئات السنين . ولذلك فان المدنية المعقدة المعاصرة لم تفاجىء الغربي كما فاجأتنا وانما لاحت له دائما قضية بديهية يعيشها كما عاشها آباؤه واجداده . لقد ولــد فوجد المدن الشامخة مبنية حوله ، والقاطرات تزحــف تحت الارض ، والكشوف العلمية قائمة وان زادت نضجا مع السنين . كما وجد امامه مجتمعا كاملا عريقا في نظمه وآدابه وثقافته .

كل هذا يخالف موقفنا في الوطن العربي حيث جاءتنا المدنيــة تركض ركضا اشبه بموجة جبارة من امواج بحر عظيم . ولقــد كان لهذا الاختلاف بين الغرب وبيننا فــي متلقى المدنية الحديثة نتيجتان مهمتان :

(الاولى) ان الفرد الغربي باعتباره لمدنيته ، يفقد نشوة المفاجـأة واللذة التي يجدها الفرد العربي . يرى الغربي مدنيته شيئا طبيعيــا مألوفا بينما نراها نحن باهرة سحرية الجمال بما تجدد من حياتنــا ومجتمعنا . ان مفاجأة الانتقال من البدائية الى المدنية قد احدثت في الارض العربية هزة حياة عظيمة . فكأننا أرض حية اقفرت واجدبــت قرونا ثم افاقت فجأة على انهمار سيول متلاحقة من مياه باردة منعشة تغلغلت في كل شبر منها فتفجرت لمرورها الخصوبة النائمة . او كأننــا موجة بلغت قراراتها السفلى واستجمعت قواها جميعا لقفزتها التالية .

وهكذا نجد المجتمع العربي اشبه بعملاق سليم البنية نام طويـلا واستجمع قواه ، حتى اذا افاق وفتح عينيه وجد حوله فجرا عــذب الجمال يمتد ويغمر الدنيا . انه يحس في اعماقه فرحا مائجا ويستشعر رغبة جارفة الى ان ينهض ويعمل ويعيش ملء حياته . وهو في موقفه هذا يختلف عن المجتمع الغربي الذي الف مدنيته فــلا مفاجأة تسحره ولا يقظة تهزه فهو يعيش في برودة وسأم .

والنتيجة (الثانية) هي ان الفرد الغربي الذي بلغ ذروة مدنيته قد فقد الهدف العام الكبير الذي نملكه نحن . انه يولد فيجد المدن قد بنيت وقامت حوله . لقد بناها له اجداده فوجدها جاهزة بمعاملها واحيائها ومدارسها ودوائرها وانظمتها . فكأنه جاء الى الوجود متاخرا او هكذا يحس . ويجعله ذلك كله يفتقد الشعور بقيمته في المجتمع . فالمدينة الجاهزة تفرض عليه سطوتها وسيطرتها وتبدو لـه جبارة ظالمة مبهمة . ويعرف قراء الادب الغربي المعاصر كيف يحس الفرد هناك نحو المدينة التي يعيش فيها فهو يسميها عدوة ويصفها بالقبح والفجــور ويرى نفسه بين يديها حيوانا صغيرا ضعيفا لا حول له ولا قوة .

واما نحن فان حياتنا العربية تمنحنا اهدافا شاسعة نتعطش اليها ونسعى بحيث لا يبقى لنا فراغ . ان مدينتنا يافعة تنمو وتستقي الضياء من الشمس ومن سواعدنا المتعطشة للعمل ، والوجود بين ايدينا خـام يسألنا ان نعيش ونبني ونزدهر . ان حولنا مئات من القفار العربيــة المشتاقة الى السواعد العاملة وعلينا ان نسقيها ونزرعها خضرة ومدنا وحضارة . يضاف الى ذلك ان ديارنا ترزح تحت وطأة الاستعمـــار البغيض ، واسرائيل تقوم في قلب أراضينا وذلك وحده يعطينا عــن الانشغال والعمل ما يملأ حياتنا ويغنيها خلافا للغربي الذي حقــق استقلاله منذ ازمنة بعيدة وبذلك فقد الهدف الكبير وامتلك مكانة فراغا وترفا وحياة لينة ما يلبث حتى يسأمها ويحس رتابتهــا وجدبها . ان خيرات الوطن العربي ، مما يسرقه الاستعمار ، ما زالت تتدفق على افراد غربيين يملكون كثيرا من المال والفراغ وقليلا من الاهداف . فلا عجب في ان تنهار نفسية الفرد الغربي ، ويطبق الظلام على المجتمع هناك كمــا يصور لنا الادب الغربي المعاصر . ان علماء الحضارة والسلالات يقررون مبدأ هاما ثبتت حكمته هو أن الشعب الذي يفرغ من الكفاح ويخلــد الى البطالة والترف ينتهي الى الزوال . والعرب يقولون ان الفــراغ مفسدة . وقديما شخص الرسول الكريم هذا المعنى فقال لامتــــه « اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم » .

وينعكس احساس الفرد الغربي هذا في انتاجه الفكري والادبــي وهو كله تقريبا من شعر وقصة ومسرح ونقد وفلسفة وفنون ، كلــه يعكس اليوم اليأس والغيظ والتشاؤم والرعب ، فكأن الفرد قد استنفد حيويته وصار الى القنوط والذبول . وليس « غثيان» جان بول سارتر الصورة الوحيدة لما نقول ، فقد تبعه وقلده مئات في الغرب . ومــن هذه الصور كلها تستنتج ان العرق العام وراء الفكر الغربي المعاصر هــو

(١) ترجمتي عن كتاب
The Confession of St. Augestine
ولا اظنه مترجما الى العربية

(٢) بيت ابن الفارض : ومعنى وراء الحسن فيك شهدته
به دق عن ادراك عين بصيرتي

(٣) مطلع التائية الكبرى :
سقتني حميا الحب راحــة مقلتي
وكأسي محيا من عن الحسن جلــت

ان الانسان وحيد في الوجود ، وان حياته عبث لا طائل وراءه ، فخير ما يمكن ان يصنعه ان يموت . ونجد في رواية La Condition Humaine للكاتب الفرنسي المعاصر اندريه مالرو هذه العبارة « يستطيع الانسان ان يجد الرعب في اعماق نفسه دائما . وكل ما يحتاج ان ينظر عميقا » .

ولعل هذه العبارة تصلح مفتاحا لنفسية الغربي اليوم . انه مرعوب ، تلك هي صفته الاولى ومنها يتفرع القلق والنهم الجنسي والجريمة ، ومنها ايضا تنبع معاداة المجتمع واحتقار نظمه . ان هذا الفرد الغربي يحتقر الاخلاق فيسخر في كتبه من الرحمة والصدق والعفة والشرف سخرية وقحة يستنكرها العربي كل الاستنكار . ويزيد الغربي فيزدري الوطنية ويضحك من الاخلاص للمجتمع ويستخف بفكره الاسرة والعائلة . ولذلك نجد في رواية مشهورة لالبير كامو L'étranger ان بطلها يذهب في يوم وفاة امه ليلهو على الشاطىء مع صديقة له ، ويتحدث عن امه المتوفاة بلهجة خالية من الشعور خلوا عجيبا . وهذه النغمة قد شاعت شيوعا عظيما في ادب الغرب المعاصر لان المثل الاعلى للشخصية اليوم هو الانسان الذي لايحب اي احد ولا يحترم اية مثل ولا يدين باي مبدأ . ان الحب باشكاله كلها يبدو له تقييدا لحريته ، سواء اكان حبا للوطن ، ام حبا للمجتمع ، ام حبا لحبيبته او زوجة اوام ، ام حبا للحياة نفسها . وحتى حب الله يتعارض مع حريته ولذلك نسمع « اوريست » بطل مسرحية « الذباب » لجان بول سارتر يخاطب الهه قائلا : « انت الله، وانا حر » .

ومن صور هذه الفلسفة في الفكر الاوربي الحديث مسرحيات لويجي بيرانديللو وهي في مجملها تقوم على احساسه بان الحياة عقدة لا حل لها وان الحقائق تزوغ ولا تثبت فلا يبقى للانسان غير ان يجن ويفقد عقله مثل « هنري الرابع » . وعندما نقرأ ج.ب.بريستلي في مسرحياته الجميلة « كورنيليوس » او « الزاوية الخطرة » او « الزمن وآل كونري » او « اناس في عرض البحر » نخرج متشائمين كارهين للحياة . وماذا نجد في مسرحيات يوجين اونيل الاميركي ؟ انمسرحياته « الحداد يلائم ايليكترا » و « القرد ذو الشعر » و « الحوار الغريب» مملوءة بالظلام واليأس وسوء الظن بالانسان . وماذا عن آرثر ميلر وتنسي ويليامز وسواهما من مسرحيي اميركا المعاصرين ؟ ان المرء ليحس بالضيق والتشاؤم من قراءة كل هذا الانتاج المظلم المريض فكان الغرب قد مات روحيا ولم يعد يعطي ابناءه الا المرض والغثيان والجريمة .

ومن المحزن لي ان اجد كثيرا من ادبائنا وفنانينا اليافعين المعجبين بالفكر الغربي ، يندفعون في التأثر بهذا الادب وتلك الفنون اندفاعا شديدا وبذلك يبددون مواهبهم وخصوبة اذهانهم . وطالما هزني الشوق الى ان اقرأ ادبهم بما اعرف لهم من موهبة واقتدار ، فما اكاد ابدأ حتى يصدمني الظلام والجريمة واليأس ، فاكف عن القراءة آسفة .والى هؤلاء الموهوبين اليافعين العرب اتجه بهذا البحث .

ان هذه النظرة الى الحياة ، في شطريها اللااخلاقي والتشاؤمي ليست هي النظرة العربية ، فقد كانت العروبة منذ اقدم عصورها متمسكة بالاخلاق والمثل ، ذلك على الرغم من وجود المروق في كثير من الفترات . ولم يصبح الانحلال الخلقي فلسفة لدينا على الاطلاق ، وانما كان يعد ، حين يقع ، خروجا فاسدا على قانون المجتمع ، وسرعان ما كان المارق يزهد ويتوب مثل ابي نواس وعمر بن ابي ربيعة .

يضاف الى ذلك ان التحلل والتشاؤم وازدراء الحياة مواقف لا تلائم حياتنا العربية اليوم ، ذلك اننا لكي نبني مجتمعنا الجديد ونحرر ديارنا من عبودية الاستعمار ، نحتاج الى الاخلاق والعمل والتفاؤل . وما من شيء يستطيع ان يفسد علينا جهودنا مثل تبنينا لهذا الفكر الغربي المريض . فاذا اتخذ شبابنا نماذجه الادبية والفكرية من اعلام الغرب المعاصر مثل سارتر ومورافيا وكافكا فالى اين سننتهي ؟ اقول هذا وانا اول المعجبين بهؤلاء الاعلام ، غير ان الاعجاب الادبي لا يعني ان اتخذ مواقفهم الاجتماعية والفكرية ، وانما احب مقدرتهم الذهنية الرائعة واساليبهم الادبية المكتملة وصورهم وغير ذلك ، وفي انتاجهم كثير ينفعني ويشحذ ذهني ، اما ما لا ينسجم مع عروبتي وحياتي فانا اقرأه في تحفظ واقف منه موقف الناقد المحلل .

والحقيقة ان اتجاهات الكتب المترجمة عن الغرب في السنوات الاخيرة تقلقنا ، حتى اصبحنا نخشى على نفسية القارىء العربي من رشاش هذه الموجة التي تاتينا راكضة من الغرب . وقد نصف هذه الموجة « بالتبذل » ولا يعني ذلك اننا غافلون عما فيها من فكر واسلوب وثقافة . ذلك لان « (التبذل » هو صفتها من وجهة نظر الامة العربية ، فليس تعنينا صفتها من اية وجهة نظر اخرى. ان لنا حاجاتنا العربية، وهي تملي علينا احكامنا الاجتماعية وينبغي ان تمليها .

وعلينا ان نتذكر ان مترجمي هذه الكتب اكثرهم حسنو النية وانما ينقلونها الى لغتنا لايمانهم بحرية الفكر . غير ان الذي يفوتهم ان « حرية الفكر » ليست كلمة عامة معزولة عن مصلحة من يؤمن بها . فانما تكون الامم حرة الفكر بمقدار ما تستطيع التوفيق بين مبادئها ومصالحها . واما ان تعجب الامة بالاراء التي تهدمها وتسيء اليها فما تلك بحرية فكرية وانما هي ، اذا تاملناها عبودية ومذلة . ولذلك ينبغي ان نتحكم في تيار الكتب المترجمة الى لغة الضاد فنختار منها ما ينفعنا وننبذ ما يضرنا .

٢ ـ فارق الموقف الادبي

وهو فارق يفرض نفسه فاذا تجاهلناه ونحن نترجم آثار الغرب كنا نحن الخاسرين . ولقد عانى الادب العربي في السنوات الاخيرة من تعسف الترجمات وتجاهلها لروحية آدابنا ما جعل الغبن يقع على اكتاف الامة العربية كلها .

واول ما يشكو منه الباحث المتأمل هو الفكرة المغلوطة التي شاعت في الاوساط العربية المثقفة حول الشهرة وطبيعتها . ان طائفة من المترجمين والقراء يحسبون ان كل ما هو مشهور في الغرب قابل لانيكون عالميا ومن ثم فلا بد ان ينال الشهرة عينها في الوطن العربي . والواضح ان هذه الفكرة تتجاهل الفروق بين الشعوب ، بينما تبقى تلك الفروق تتحكم في شهرة المفكرين . والواقع ان الاديب انما يشتهر في احد الاوساط بسبب ثلاثة مقومات يضمنها ادبه للقراء في ذلك الوسط :

(اولها) ان ادبه يعبر عن الحياة الاجتماعية التي يحياها ذلك الوسط مثال ذلك ان مسرحيات بيرانديللو تقدم اشخاصا ذوي آداب واراء اوربية بحيث تجري اجتماعاتهم واحاديثهم وفقا لتقاليد المجتمع الاوربي الحديث . ولذلك يجد الاوربي لذة في شهود تلك المسرحيات .

و (ثاني) مقومات الشهرة ان الاديب يعبر عن متوسط المستوى الفكري العام للامة . مثال ذلك ان الاداب الغربية المعاصرة مفعمة بالتعقيد الفكري والحيرة الفلسفية والاحساس بضياع الحقيقة على وجه يالفه المتعلم الغربي الحديث بكثرة ما قرأ من امثاله وشهد على المسرح منذ عشرات السنين . وليس من الممكن ان يتذوق مواطننا العربي هذا المستوى من التعقيد بطفرة ، وانما يصبح ذلك معقولا اذا تدرجنا سنين طويلة في تدريبه على ذلك باطلاعه على النماذج الابسط من آداب الغرب ومهما يكن فان درجة التعقيد في فكر الامة مسالة اجتماعية محضة تتحكم فيها آلاف العوامل . وان من الامم من يؤثر البساطة بفطرته فلن تقبل التعقيد مهما دربناها .

ومن الطبيعي ان تكون اللغة (ثالث) مقومات الشهرة . فمهما قلنا عن مضمون الادب فانه يبقى ظاهرة لغوية قبل كل شيء . ولعله من البديهيات ان للغات المتباينة اساليب متباينة في الاشتقاق والصياغة وتركيب العبارة ولفتات البلاغة . وكلما كان ادب الاديب اكثر عناية بالبلاغة كان نقله الى اللغات الاخرى اصعب من نقل النثر . ويعرف الذين درسوا شيكسبير ان نقله الى العربية يكاد يكون محاولة عقيمة وذلك لكثرة ما في شعره من استعارات وتشبيهات ومجازات وتلوين وبلاغة وسوى ذلك مما لا ينقل من لغة الى لغة . واما ما ترجموا من

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

محاذير في ترجمة الفكر الغربي

— تتمة المنشور على الصفحة ٧ —

مسرحية فلا يزيد على نقل « حكايات » ذلك المسرح .

وبعد استذكارنا لهذه العوامل يحق لنا أن نتحفظ فيما نختاره للترجمة الى لغتنا . فليس كل كتاب مشهور لسارتر او سواه يستحق ان يترجم الى لغة الضاد . وقد نستهجن اوساطنا مسرحية مشهورة لبرناردشو أو رواية لجيمس جويس ويكون ذلك منها دليلا على قوة شخصيتها وأصالة ذهنها . ولن يكون الحكم علينا بانحطاط المستوى، او فساد الذوق في هذه الحالة الا حكما من وجهة نظر غير عربية . و « الذوق » و « المستوى » ليستا كلمتين عامتين وانما هما معنيان نسبيان تتحكم فيهما ظروف الامم وحاجاتها .

ولهذه الاسباب كلها يدهشنا أن نجد ادب طائفة من كتابنا يغص باسماء الغربيين مثل كوكول وبالزاك وولتر بيتر وبول جيرالدي وكان هؤلاء الكتاب الافاضل يفترضون ان الاعلام الغربية تستثير الذاكرة العربية كما تستثيرها اسماء عنترة والمتنبي والبهاء زهير .. والامر بعيد عن ذلك . واننا لنخشى ان في ترديد الاعلام الاجنبية عبر رواياتنا رايحة لنا لونا من التعالي على المستوى العربي . ولذلك نود لو كف مثقفونا عن حشد الاعلام الغربية في انتاجهم ، لا لاننا نريد ان نبقي قراءنا العرب في جهلهم لهذه الاعلام وما وراءها من ثقافات ، وانما لاننا لا نؤمن بان هذا هو الاسلوب في تقديم الشهرة الاجنبية الى الذهن العربي . ولسوف نعرض بعض اقتراحاتنا فيما بعد .

ولعل الوجه الاخطر من اوجه نقل الشهرة نقلا ارتجاليا من الغرب الينا هو نقل الاراء . فكأن شهرة الاديب الغربي تبرر للفرد العربي ان يعتنق آراءه الاخلاقية والاجتماعية جميعا . وقد لاحظنا ان طائفة من كتابنا العرب يتبنون آراء الغرب المتشائمة اللاأخلاقية فينقلون في ادبهم معالم من الجو المظلم الخانق الذي تتصف به آداب أوربا المعاصرة ذلك على الرغم من الاختلاف الواضح بين ظروفنا المبشرة في الوطن العربي وظروف الغرب الذي بات يتحلل يوما بعد يوم وتسير روحيته للانهيار . وما هذا المسلك من ادبائنا هؤلاء الا نقلا متعسفا لشهرة كتاب غربيين لا جذور لنفسياتهم في الارض العربية .

ويدخل في هذا الباب ايضا ما دأب عليه جماعة من النقاد العرب في السنوات الاخيرة من نقل الاحكام الادبية التي يصدرها نقاد الغرب الى عالمنا دونما تمحيص او تمييز . فاذا ابدى ايليوت او امبسن او ريتشرد او فركسن رأيا ادبيا ، حسب نقادنا ان ذلك الرأي ينطبق بالضرورة على أدبنا ، ومن ثم فهم يطبقونه على الادب العربي فورا ، وتكاد حماسة هؤلاء النقاد العرب — ومنهم نقاد مبدعون ذوو أذهان حرة — تجعل مقالاتهم تغص بالاعلام الاجنبية والاصطلاحات الدخيلة على آدابنا . وقد يكون مصدر هذه الظاهرة اعجابهم المفرط بالنقد الاوربي وانبهارهم بنظرياته . ونحن نقر ذلك ونشاركهم اعجابهم، لا بل انني شخصيا تتلمذت على طائفة من كبار نقاد الغرب في دراستي للماجستير مثل الاستاذ فرانز فركسن وآلن تيت وريتشرد بلاكمر ، فانا اكن لهم الاعجاب والتقدير . غير ان هذا الاعجاب لا يبرر لنا ان نتعسف في تحكيم آرائهم في ادبنا المحلي لان تراثنا يختلف اختلافا كبيرا عن تراث الغرب واما ما يصح ان نتعلمه من النقد الغربي فهو سعة الذهن ، واسلوب البحث وموضوعية الاحكام واصالة الرأي وقوة الاستنباط . والحق أن ادبنا العربي ينبغي ان يعطينا نظريات في النقد تخالف نظريات النقد الغربي سينتهي بنا الى محذورين :

١ — التعسف في تطبيق قوانين اجنبية على ادب عربي له تاريخه ومزاجه ولغته واسلوبه .

٢ — اهمال جوانب مشكلة خاصة بادابنا مما لا تتناوله كتب النقد في اوربا واميركا لان مشاكلنا الادبية غير معروفة في آدابهم .

مثال : نحن والرومانسية .

نحب ان نورد مثالا لما يوقعنا فيه نقل الاحكام الغربية الى عالمنا الادبي . يحكم النقاد المعاصرون في الغرب بان « الرومانسية » لون أدبي عتيق لا يلائم عصرنا . وقد بلغ من ازدرائهم لها ان باتوا يستعملون لفظ « رومانسيكي » في نعت من ينتقصونه من الشعراء . وقد نقل فريق من الادباء العرب هذا الحكم الى عالم النقد عندنا فصار الشعراء اليافعون يتناقلون بينهم ازدراء « الرومانسية » وكأنها سبة يعير بها الشاعر . وكان بديهيا ان يصحب ازدراءهم هذا لما يزدريه الغربيون ، اعجابهم بما يعجب به اولئك النقاد ، فانتشرت في الشعر الجديد عندنا الروح الغربية المعاصرة وقوامها التعقيد واليأس وتناقض الصور وازدراء المجتمع

اما من وجهة النظر العربية فان « الرومانسية » ينبغي ان تكون مستحسنة في الشعر ، لان الغرب انما سئمها بعد أن شاعت قرنا من الزمان تقريبا حتى لم تعد تؤدي غرضا . اما نحن فلم نستعملها الا لمحة في ادب جبران خليل جبران وبعض من عاصروه مثل نقولا يوسف وطائفة من الشعراء . والحق اننا لم نعرف الرومانسية ، فكم لها من اجواء وكم فيها مما لم نتذوق ، وسنمر عليه مرورا عاجلا في الفقرات التالية :

١ — تدعو الرومانسية دعوة شديدة الى الروح الفردية المستقلة ، والنظرة الذاتية التي تنبثق عن شخصية الشاعر ، وهذا يلائمنا لاننا نحب ان يتحرر الشاعر من سطوة القبيلة او العشيرة او العائلة . فكلما كان الشاعر ذاتيا كان ذلك انفع لمجتمعنا حيث نحتاج الى ان ننمي الروح الخلاقة ذات الفكر المتفرد .

ويتفرع من هذا ايمان الرومانسية بتمرد الفرد على الاوضاع الفاسدة التي تحيط به ، لانها في جوهرها دعوة الى الايمان بكل ما هو جميل وعظيم واخلاقي . ومن ثم فهي تمجد البطولة .

٢ — تدعو الرومانسية الى احياء الاداب القديمة وتمجيد التاريخ القومي بالقاء نظرة حديثة عليه فيها فردية الشاعر ونظرته الذاتية . وما اظننا نحتاج اليوم شيئا كما نحتاج هذا . والرومانسية في ذلك بعكس الفلسفات الوجودية والعدمية المعاصرة لان هذه الاتجاهات الجديدة تحتقر الايمان بالمجتمع وتهزأ بالوطنية والقومية وتسخر من المثل .

٣ — تمجد الرومانسية العواطف الحية الخصبة . والعاطفية فيها تكاد ترادف الانسانية . واما ما في بعض الرومانسية من كآبة وحب للكآبة فليس ذلك ملازما لها . واللمسة العاطفية ضرورية للشعر العربي والروح العربية ، لان الصبغة العامة للفكر العربي عبر عصوره كانت صفة ذهنية لا عاطفية ، ولذلك شاعت الحكمة في الشعر وشاع السجع والبديع وعرف التمحل ، فكل ذلك من عمل الفكر لا العاطفة ، ومن ثم فنحن حين نتخذ الرومانسية موقفا انما ندخل على ما الفناه تغييرا ونوسع الحياة العربية في اتجاه جديد .

٤ — تؤمن الرومانسية بحيوية اللغات الانسانية وقدرتها على النمو والتجدد ، وقد عرف الرومانتيكيون بالجرأة في صياغة الصور والتشبيهات والاستعارات . ونحن في الشعر العربي نحتاج الى ذلك على أن يتم في حدود الاطار العام للنحو والبلاغة .

٥ — من ملامح الرومانسية في الشعر صفة الغنائية والموسيقى العالية الرنين وهذه الغنائية هي نفسها تجديد بالنسبة لشعرنا الذي اتصف غالبا بالحكمة والصياغة اللفظية المحكمة والايجاز الشديد وشيء من النثرية ترد هنا وهناك فيه . يضاف الى ذلك ان الموسيقية تضمن للشعر اليوم ما يتوق اليه من استثارة العواطف القومية في الجماهير الكبيرة ، ولذلك نخسر خسارة كبيرة حين نتخلى عن الرومانتيكية ونعتنق اتجاهات ايليوت أو باوند في الشعر . لان هؤلاء المعاصرين في الغرب يزدرون العاطفية والوضوح والموسيقى ازدراء ملحوظا ولعل معهم الحق في ان يزدروا ما يشاءون ما دام ذلك لا يضر اوطانهم ولا يمس قضاياهم القومية . اما نحن فان تقليدنا لهم في هذا الازدراء يسيء الينا ويعرقل تحررنا الاجتماعي . واننا لنكون ضعفاء الرأي لو تخلينا عما نحتاج اليه لمجرد أن نقاد اوربا يستهجنونه . فنحن في ذلك اشبه بمريض يتوقف شفاؤه على شرب الحليب ، ومع ذلك يقاطع

الحليب لان جاره المستهلي قربه . ان لنا ظروفنا وحاجاتنا فما لنا وللغرب ؟ وليفاخروا الريطة ما شاءوا ... كلنا تفاظها نحن وهي تضمن مصلحتنا !

المشكلة وحلها

والان بعد ان استعرضنا الخطر في غيبنا للادب الغربي على علاته ، يصح ان نتساءل عن دواء هذه العلة . فماذا ينبغي لنا ان نفعل أنستغني عن الفكر الغربي ونسد دونه ابوابنا ؟ أم الاحسن ان نتحاشى مزالقه بوسائل نتخذها ؟ ولا اظننا سنختلف في ان الاستغناء عنه غير ممكن ولا مقبول ، فهو شيء جميل فيه خير كثير ونحن نخسر باطراحنا له خسارة كبيرة . والذي لا يبقى لنا الا ان نتخذ لانفسنا وسائل حماية تقينا ما في هذا الادب الوافد من شرور تضمن لنا مزاياه وفوائده .

والواقع ان هناك طرقا كثيرة تتحاشى بها الامم ان تفقد شخصيتها في غمار ما تترجمه من كتاب الامم الاخرى . ولن نذهب بعيدا في التماس هذه الطرق ، فان تاريخنا العربي يعطينا درسا فيما نستفيد منه . فقد جابهت الامة العربية في تاريخها عصر ترجمة مشهور هو عصر المامون وما بعده . وما زال في وسعنا ان نتابع خطى اجدادنا العظام في هذا السبيل . وسوف نجد ان منهجهم الاول كان الانتقاء : كانوا يقلبون آثار الامم المتحضرة الاخرى وينتقون منها ما يلائم الحاجة العربية والظروف القائمة . وهكذا اقبلوا على ترجمة الفلسفة اليونانية في تعطش ولهفة ولكنهم حذفوا منها كل ما يتعلق بالشرك وتعدد الالهة . ونراهم يترجمون عنهم الرياضيات والمنطق ، غير أنهم تركوا المسرح الاغريقي فلم يرد في سجلاتهم ذكر سوفوكليس ويوربديس وارستوفان على شهرتهم في الفكر الاغريقي . وكان الاساس الذي يرتكزون اليه هو مصلحة الامة العربية ، لا مقاييس الشهرة في اوربا . ولا نجدهم قد قلقوا مما يمكن ان يقوله عنهم الغربيون . فلقد كانوا افراد امة عظيمة تثق بنفسها وبمواهبها ونتاجها ، فمقاييسها الشخصية هي المقاييس ومصلحتها العربية فوق كل مصلحة .

والان فلم لا يكون هذا هو قانوننا اليوم ايضا ؟ لماذا نترجم كل ما هو مشهور في اوربا دون نظر الى مقاييسنا واحتياجاتنا ؟ ان علينا ان نخضع كل ما نترجمه عن الغرب لعملية تشبه « التعريب » على نحو ما فعل اجدادنا . ولسنا نقصد بالتعريب ما يقصد به اليوم من تحريف في اللغة والافكار على هوى المترجم ، وانما نريد أن يصبغ الاثر المترجم بالروح العربية ، كما صبغ افلاطون وارسطو من قبل . فما اوضح الفرق بين افلاطون كما عرفه الفكر العربي وافلاطون الاغريقي . ان القارىء يكاد يحس احيانا انهما فيلسوفان لا فيلسوف واحد . ولم ينشأ ذلك عن تحريف انزله العرب به ، وانما ينتج من ان المترجمين العرب قرأوه قراءة عربية الطبيعة متأثرة بالتراث القومي والذهن اللغوي للامة ، وقد توسعوا في الجوانب التي تهمهم من افلاطون فوقفوا عندها ونبذوا ما عداها ، وبذلك اصبح افلاطون عربيا على وجه ما ، ومن ابسط صور هذا انهم قالوا في تسميته « افلاطون » فقلبوا التاء طاء . وكانت لهم شبه قواعد في نقل الاعلام وتعريبها بحيث يستسيغها اللسان العربي .

والواقع ان الامم القوية الشخصية لا تتقبل شيئا يخالف تكوينها ومزاجها ، وانما تهضم ما تأخذ وتعيد بناءه وبذلك تترك عليه طابعها . واما ما نراه اليوم من اسلوبنا في ترك اذهاننا نهبة للفلسفات الوافدة فهو ولا شك مظهر من مظاهر السلبية التي صارت اليها الامة العربية . ولولا هذه السلبية لم نكن مستعمرين .

يضاف الى ذلك ان اسلافنا العظام لم يكتفوا بالتعريب وانما قدموا الترجمات للقراء العرب محفوفة بالحواشي والتعليقات المجزلة بحيث يلوح وكانهم كانوا يمتحنون الآراء الوافدة على محك الذهن العربي . وكانوا يضيفون الى الاصل الكثير من عندهم يجعلونه في مقدمة الكتاب فكان القارىء العربي يقرأ الترجمة ويقرأ بعدها راي المفكرين فيها . وكان المفكرون بذلك يوجهون الامة كلها . وهذا الاسلوب في الترجمة يجعل الاصل الغربي اغنى . ونحن على يقين من ان ت.س. اليوت ، وجن بول سارتر وسواهما يكتسبون ابعادا جديدة من الخصوبة والايحاء حين تمر على آثارهم الروح العربية القوية الشخصية الواثقة بذاتها ، واذ ذاك يكون عطاؤهم لامتنا اعمق واغزر .

ومن الوسائل الحديثة التي نستطيع ان نتخذها لننجو من مزالق الفكر المترجم الا نقدم الترجمات الا وهي مسبوقة بمقدمات ضافية تكتبها اقلام عربية رصينة متمكنة من الادب العربي تمكنها من الادب الغربي . ويكون هدف هذه المقدمات ان تشرح للقارىء العربي معاني هذا الادب الوافد شرحا وافيا يجعله يتذوقه تذوقا حقا ، كما انها تشرح للقارىء صلة هذا الادب بحياة الغرب وتيارات الفكر فيه . ويأتي بعد ذلك جانب من المقدمة اخطر واهم وهو دراسة الاثر الغربي من وجهة النظر العربية ، فاذا كان فيه خروج على تقاليدنا الاجتماعية او الادبية وقفت عنده وناقشته وفندته واثبتت بازائه المفهوم العربي على أساس نظرتنا القومية الحديثة بكل ما فيها من تقدمية وتحرر فكري . واذا وجدت اللغة في الاصل تخالف اتجاهات لغتنا درست ذلك وبينت ما فيه من امكانيات قد نستطيع استخدامها في لغتنا اذا ما رضيها الجمهور المثقف العام . وبمثل هذه المقدمات يغتني الاثر الادبي ، ويكتسب قارئنا ثقافة واسعة جديدة فضلا عن اعتنائه بالاستقلال الفكري والثقة بالنفس .

واما ان نقدم آداب الغرب بلا مقدمات فان ذلك يبلبل قراءنا ويزيدهم جهلا بالفكر الوافد ، لا بل انه قد يسلم اذهان بعض القراء الى الغرور والسطحية لانه يساعد القارىء على حفظ الاعلام الغربيـة دون فهم . وتكاد هذه الظاهرة تكون ملحوظة عند طائفة من ادبائنا الناشئين .

ولا بد لنا من أن نقول كلمة عن اللغة . فان الترجمة العربية الجيدة هي التي تصوغ الاثر الغربي بلغة تحافظ على اساليبنا العربية من بلاغة وقواعد وتراكيب . وذلك على شرط سلامة الجو في الاثر المترجم . والحق ان نقل اجواء الادب من لغة الى لغة لا يقتضي اطلاقا ان تستعمل اصطلاحات اللغة الاصلية واساليبها . ولذلك فان من الخطأ ان يقع المترجمون في ترجمات حرفية : ترجم احدهم هذه العبارة The Reason Why فجعلها كما يلي « السبب لماذا » وكانت عنوانا لكتاب ديني . وما من شيء يقتل الآثار الادبية مثل هذه الحرفية التي شاعت لدى طائفة من المترجمين . وما الحرفيـة في الواقع الا استسلام المترجم الى ذهن المترجَم عنه استسلاما اعمى . فهي اذا تأملناها لا تسيء الى اللغة العربية وحدها ، وانما تشوه فوق ذلك جو الادب المترجم افظع تشويه . فكأنها تسد باب الذهن العربي بازائه . وبذلك نخسر الجهد والوقت وفرصة تستفيد فيها الامة العربية من آداب الامم الاخرى .

جامعة البصرة — نازك الملائكة

